الفصل الثانى

# موقف الشاعر الأندلسى من المكان

obeikandl.com

obeikandl.com

## توطئة

أدرك الإنسان منذ القدم الدور المتميز للمكان وعلاقته بوجوده وأصبح من أهم العوام المؤثرة فى حياته وأدى دورا أساسيا تاركا آثاره بالرفض أو القبول[1].

إن المكان من أهم العناصر التى يوجه إليها الإنسان مشاعره سواء أكانت مشاعر ألفة أم مشاعر معادية فهى تخضع للوضع الفكرى والنفسى الذى يعانى منه الإنسان، زيادة على ذلك فإن الموقف من المكان متأت من قيمة المكان وما يثيره من أحاسيس ومشاعر فى وعى الشعراء بوصفهم أكثر الناس حساسية تجاه البيئة المحيطة بهم.

والموقف من المكان بالنسبة للشاعر يعطى رؤية كاملة عنه وما يختلج فى نفسه من أحاسيس وما يعانيه من مشاعر تجاه ذلك المكان واتخذ من الشعر وعاء يسكب فيه تلك المشاعر والأحاسيس المتولدة من المكان حتى أصبح المكان ((ترجمة واقعية صادقة لأحاسيس الشعراء ))[2].

وقد اختلفت مواقف الشاعر تجاه المكان، وهذا الاختلاف ما هو إلا نتيجة رؤية الشاعر للمكان وطبيعة العلاقة بين كل منهما.

هذه الرؤية للمكان يمكن أن تكون رؤية إيجابية متمثلة بالألفة لذلك المكان وقد تكون سلبية متمثلة بالعدائية أو العيش فى حالة غربة تجاه مكان ما ، وكل هذه المواقف والرؤى تحدد لنا بشكل واضح موقف الشاعر تجاه المكان.

---

( ١) ينظر: مدخل جديد إلى الفلسفة، نظرية المكان فى فلسفة ابن سينا، ١٧ .

( ٢) المكان فى الشعر العربى قبل الإسلام،٣١ .

وقد يتجسد المكان تجاه المكان وساكنيه فألفة بعض الأماكن بالنسبة للشعراء متأتية من ساكنيها فعلى الرغم من عدائية بعض الأماكن إلا أنها تكتسب الألفة من الأشخاص الذين يعيشون فيه والأحداث التى تقع فيها.

والعكس من ذلك فربما يكون المكان ذا طابع جمالى من حيث الشكل إلا أنه يتسم بالعدائية لعدم انسجام الإنسان وتآلفه مع ساكنيه بسبب الظروف الاجتماعية أو النفسية المتمثلة بعدم شعور الإنسان بتحقيق مطامحه وأهدافه. وهذا ما نلمسه بشكل واضح فى الأدب بصورة عامة والشعر بصورة خاصة لكونه مرآة عاكسة لمختلف المشاعر النفسية والأفكار لذلك حمله الشعراء موقفهم تجاه الواقع المعاش والبيئة المحيطة بهم.

obeikandl.com

## المبحث الأول

## المكان المحب (الأليف)

وهو كل مكان شعرنا فيه بالدفء، والحماية وتفاعلنا معه، وترك بصماته بشكل واضح على ذاتنا بحيث لا يمكن أن تنمحى تلك البصمات لشدة رسوخه وتمكنه فى أذهاننا[1].

والأماكن الأليفة يمكن أن نعرفها من خلال التجربة ومن خلالها تتحقق ذاتنا، وبدونها نبقى مضطربين وغرباء[2] فهى ملتقى الأحبة ففيها الألفة والدفء، والعاطفة والحنان والجمال، وهذا المكان قد يكون مدينة أو منزلا أو روضا أو بستانا..وكل ماله أثر مثقل فى نفس الإنسان.

إن المكان الأليف لدى الإنسان (( هو دائما المكان المحبب ووظيفته فى الشعر أن يشحن الذاكرة باستمرار بشتى الصور الباعثة على الحياة الإنسانية الدافئة))[3].

وفى هذا المكان نلمس علاقة ارتباط بين الذات الإنسانية والمكان، هذه العلاقة الارتباطية بين الساكن والمسكن أشبه بأن تكون علاقة الروح بالجسد لذلك كان له حضور دائم فى الوجدان البشرى.

---

(١) ينظر: البِنَاء الفنى فى الرواية العربية فى العراق، د. شجاع مسلم العانى، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠٠م، ٩٩، الوصف فى الرواية العراقية، عبد الأمير مطر الساعدى (رسالة ماجستير)، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٠م، ٩٨.

(٢) ينظر: حواريات المكان، إدوارد هال، ترجمة: طاهر عبد مسلم، مجلة الثقافة الأجنبية، وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ع٣،٤، ١٩٩٧م، ٣٩.

(٣) المكان فى الشعر العربى قبل الإسلام، ١٢٥.

وزيادة على كون المكان الأليف هو مكان المعيشة المقترن بالدفء والحنان فإن ثمة حماية لهذا المكان من الخارج المعادى وتهديداته ويمنح هذا المكان الحلم والتذكر والسعادة[1].

وعلى الرغم من كل هذا فإن أهمية المكان ازدادت فى الوقت الحاضر فضلا عن اختلاف رؤية الإنسان وموقفه تجاهه فهو ((ليس الحيز الذى يحتوينا ويوفر الحماية والدفء لنا فحسب وإنما هو ذلك الكائن الذى يحيا فى دواخلنا ويورثنا قساوته وسيولته طيبته وبشاعته))[2].

وقد استطاع الشاعر الأندلسى أن يتآلف مع المكان الجديد على الرغم من قساوة الظروف بالنسبة إلى العرب ولا سيما فى بداية الفتح وما يحيط بهم من صراع مع الأسبان بلغ ذروته[3] فهذا المكان هو ((فردوس ثر الجمال اكتسب جوا عبقا وظلالا وارفة وجبالا شامخة وأنهارا جارية..شحذت قرائح الشعراء وأسرت قلوبهم))[4]. وراحوا يستشفون وينعمون فى ذلك المكان بل ووجدوا فيه كل مقومات المكان الأليف على الرغم من بعده عن المشرق.

ومن الأماكن التى ألفها الشاعر الأندلسى هو المكان الحضرى فهذا ابن عبد ربه يصف لنا منية كنتش حيث يقول:

| | |
|---|---|
| أَلِمّا على قصرِ الخليفَة فانظُرا | إلى مُنية زهراءَ شيدتْ لأزهرا |
| مزوّقة تستودعُ النجمَ سرَّها | فتحسبهُ يصغى إليَها لتخبرا |
| هى الزّهرةُ البيضاءُ فى الأرض | لها الزهرة الحمراء فى الجو مغفرا |
| يودُّ ودادًا كلُّ عضوٍ ومفصلٍ | لمبصرُها لو انّهُ كان أبصرَا |

(١) ينظر: جماليات المكان، جاستون باشلر، ٤٥.

(٢) شعرية المكان فى الرواية الجديدة، ٢٩٨-٢٩٩

(٣) ينظر: ظهر الإسلام، د. أحمد أمين، مكتبة النهضة، القاهرة، ط٢، ١٩٥٩م، ٣/ ٢٣٠.

(٤) مدخل إلى الأدب الأندلسى، د. يوسف طويل، دار الفكر اللبنانى، بيروت، ٨١.

بـنـاءٌ إذا مـا الليـلُ حـلَّ قـناعهُ ... بدا الصّبحُ من أعرافه الشم مسفرا
تعالى علوًا فـاتَ عن كل واصفٍ ... إذا أكثروا فـى وصـفهِ كـان أكثـرا
تـرى المُنيةَ البيضاءَ فـى كل شارقٍ ... تلبّسُ وجه الشمس ثوبًا معصفر[1]

فهنا وجه ابن عبد ربه مشاعر الدفء تجاه ذلك المكان فهو يخاطب صاحبيه أن يعرجا إلى القصر، ليريا هذه المنية التى زينت للأمير فكأنها كوكب الزهرة بين النجوم ترنو إليها الأنظار، فهذا المكان أثر فى نفسية الشاعر مما جعله يضفى عليه هذه الصفات الجميلة.

ويطالعنا محمد بن هشام[2] بعبارات يشبه فيها قصر الزهراء بالجنة حيث يقول:

وكـأنَّ الـورى بأفنـيةِ الـزهـ ... ـراءِ مـن كـلِّ ملّـةٍ وقبيلِ
موقـفُ الحشر قـد تـبدّى أو الجنـ ... ـةُ قد أزلفت لأهلِ الدخول[3]

فليس من المصادفة أن يجعل قصر الزهراء جنة بل جاء وفقاً لألفته لذلك المكان فحاول أن يضفى عليه أروع التشبيهات وهى المكان المقدس-أى الجنة وكثيرا ما أثار هذا المكان الجنة-مشاعر الشاعر الأندلسى وأحاسيسه[4].

ومن الأماكن التى ألفها الشاعر الأندلسى أيضاً أماكن اللهو فقد ألهمت هذه الأماكن الشعراء مشاعر الألفة والشعور بالراحة والاسترخاء وتعد الرياض أحد الأماكن التى لجأ إليها الشاعر فى شرب الخمرة مازجا بين أجواء الخمر وأجواء الطبيعة فهذا عبد الله بن الشمر (٢٣٥هـ) يقول:

---

(١) ديوان ابن عبد ربه، ٦٨.
(٢) محمد بن هشام بن عبد العزيز بن حمد بن سعيد الخير بن الحكم بن هشام يكنى بأبى بكر كان أديبًا مشهورا بالتقدم فى الأدب. عاش فى أيام عبدالرحمن الناصر. ينظر: جذوة المقتبس، ١/١٥٦، والبغية، ١/ ١٨٠.
(٣) التشبيهات، ٢٩١.
(٤) ينظر: أثر القرآن الكريم فى الشعر الأندلسى من الفتح حتى نهاية عصر الخلافة، محمد شهاب العانى، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ٢٠٠٢م، ٢٤٠.

يـــا حـــبَّذا لـــيلةَ نعمـــتُ بهَـــا ... بـــينَ ريـــاضٍ وبـــينَ بُـــستانِ
فـــى قُـــبةٍ أحـــدقَ الـــسُّرور بـــنا ... فـــيها وغابَـــت نُحـــوسُ كـــيوانِ
بِكـــفّ ســـاقٍ رخـــص أناملـــهُ ... مِـــثل الغـــزالِ المـــروّع الرَّانـــى
فلـــى مـــن الكـــأس واســـتدارتَها ... ســـكرٌ ومـــن مُقلَتـــيه سُـــكرانِ
حـــسبتُ بهـــرامَ فـــوقَ راحـــتهِ ... لمـــا أتانـــى بـــه فحيَّانـــى[1]

فهو يألف ذلك الروض، لأنه يجمع ين جمال الطبيعية والخمرة وراح يتغنى بألف ذلك المكان الذى ضم ساقى الخمر.

ويستأنس محمد بن هشام فى مجلس خمر ضمه مع مجموعة من ندمائه بين الرياض المعطرة فينشد فى وصفه قائلاً:

وندامَـــى كـــأنهم أنجـــمُ اللـــيلِ ... تـــرامتْ بالـــشهبِ فـــى الآفـــاقِ
وكـــأنَّ العُقـــار فـــى الكـــأسِ شمـــسٌ ... قـــد تـــبدتْ فـــى البـــدرِ قـــبل المحـــاق
فـــى ريـــاض تعطـــرتْ وتحلّـــت ... فأتـــتْ كالحبـــيب يـــومَ الـــتلاق
نـــورها لاحـــظٌ بـــأعينِ حـــورٍ ... ســـاحراتِ الجفـــونِ والآمـــاق
وكـــأنَّ الأوراق فـــيها ثعـــابينُ ... لجـــينٍ تحـــدثت فـــى الـــسواقى
وكـــأنَّ الحـــصباءَ فـــى رونـــقِ المـــاءِ ... ســـنا الـــدرِّ فـــى بـــياضِ التراقـــي[2]

فهذا المجلس الذى ضم الشاعر وندماءه فى ذلك المكان قد أثار إحساس الشاعر تجاه هذا المكان، ولقائهم فيه بأنه أشبه بيوم التلاقى بين الحبيب والمحبوب فجعل من نورها ساحرًا للجفون والأوراق كالثعابين والحصباء كالدر فى لمعانه، وهذه التشبيهات مستمدة من نفسية الشاعر التى تآلفت مع ذلك المكان.

---

(١) عبد الله بن الشمر، شاعر أمير الأندلس (مجموع شعره)، ١٣٦.
(٢) التشبيهات، ٢٩٢.

لقد ظل المكان الأليف يتردد فى قول الشعراء، فهو صدى لنفسيتهم ويبقى إعجابهم بتلك الأماكن مصدرا للنشوة والسعادة بل ويمنحهم الفسحة للحلم والتذكر فهذا أغلب بن شعيب[1].(٣٦٠هـ)يقول:

ربَّ يـومٍ قـصدتُ فـيه إلى اللّهـ ـو وحَـولى جماعـةٌ شـطارُ
فَنـزلْنا علـى بـساطٍ مـن النورِ أنـيقٍ لم تَغْـنَ فـيه البحارُ
روضـة كالسماء لـونًا لـرائيها ولكـن نجـومها نـوارُ
تـزرع اللحـظ فـى زروع ومـاءٍ وعُـروش كأنهـا الأبكـارُ
فكـأن الـرياض إذ نحـن فـيها جـنة الخلـد حلّهـا الأبـرارُ[2]

فهو يسرد علينا صفات المكان الأليف كما وجهها وعرضها فى نصه الشعرى، فمكان اللهو الذى لجأ إليه هو روض بساطه من نور، ولونه أشبه بلون السماء فهو يشع نورا، ولا يمكن أن يصف ذلك المكان إلا بجنة الخلد، لكى يضفى عليه أعظم معانى الألفة فجاءت هذه الأبيات بعاطفة صادقة تنم عما انعكس فى نفسية الشاعر تجاه ذلك المكان، وتجد نغمة الألفة والسرور والبهجة هى الطاغية على هذه الأبيات والمشتقة من طيب ذلك المكان.

أما محمد بن عبد العزيز العتبى فهو الآخر يستهويه شرب الخمرة فى أحضان الرياض حث يقول:

إذا نَفَـحَ النـسيمُ فقُـم وباكـرْ رياضَ النهـر والأنـداءُ تَهْمِـى
ولا تـشربْ بـنات الكَـرْم إلا علـى روضٍ ندنَـدٍ وبـناتِ كَـرْمِ[3]

---

(١) أغلب بن شعيب الجيانى شاعر مقدم، سكن قرطبة، وكان من شعراء الناصر، ينظر: جذوة المقتبس، ١/ ٢٧١، بغية الملتمس، ١/ ٢٩٨.
(٢) جذوة المقتبس، ١/ ٢٧١.
(٣) المغرب، ١/ ١٣٤

فالشاعر يتخير وقت هبوب النسيم لشرب الخمرة على أن يكون ذلك بين الرياض الندية، ليمتع نظره بجمال الورود والأزاهير ويشم عبيرها الفواح.

ومن الأماكن المهمة التى ألفها الشاعر الأندلسى هى أماكن المحبوبة، وهذا ما نلمس آثاره فى قول ابن هانئ:

هلمَّا نُحيّى الأجرعَ الفردَ واللّوى ... وعُوجا على تلك الرسومِ وعَرِّجا

مواطئُ هندٍ فى ثرًى مُتنفِّسٍ ... تضوَّعَ من أردانِها وتأرَّجا

منعمةٌ أبدتْ أسيلاً منعمًا ... تضرَّجَ قبلَ العاشقين وضرَّجا[1]

فهو يتودد إلى ذلك المكان الذى كان فى يوم ما يلتقى فيه مع الحبيب فهذه الرسوم لا تعنى له شيئا لولا الحبيبة التى تسكنها ولجأ إلى أسلوب المخاطبة (هلما) طالبا من صاحبيه إعادة ذكراه فى تلك الديار وإلقاء التحية والسلام على تلك الرملة الطيبة التى شهدت ذات يوم لقاءه مع الحبيبة.

وفى موضع آخر يطالعنا ابن هانئ بقوله:

لتغدُ غَواديه بمنعرج اللّوى ... موائحَ رقراقٍ من الرِّى مُتَّحا

سقَتهُ فمجَّت صائكَ المسكِ حفَّلا ... تسحُّ وأذرتْ لؤلؤ النَّظم نُضَّجا

فلم تُبقِ من تلك الأرجاعِ أجرعًا ... ولم تبقِ من تلك الأباطح أبطَحا[2]

فهو يدعو بالسقيا لوادى الأحبة، لأن الإنسان إذا ما ألف مكانا تمنى له الخير، وهذا الخير متمثل بالغيث الذى يسقى هذه الديار.

ومن الأماكن التى ألفها الشاعر الأندلسى أيضاً ووجد فيها متسعا يعبر فيها عن

---

(١) ديوان ابن هانئ، ٣٠٥-٣٠٦، الأجرع: الرملة السهلة الطيبة، عوجا: اعطفا، عرجا: اعدلا واتركا، الأسيل: الخد اللين.

(٢) المصدر نفسه، ٣٤٥، الغوادى، الواحدة غادية، السحابة تنشأ غدوة، مجت: بصقت، الصائك: اللاصق.

أحاسيسه الأماكن الطبيعية فهذا أبو الأجرب الكلابي[1] (ت: ١٣٨هـ) يقول:

ولقد أرانى من هواى بمنزلٍ ... عالٍ ورأسى ذو غدائرَ أفرعُ

والعيشُ أغيدُ ساقطٌ أفنانُه ... والماءُ أطيبه لنا والمرتعُ[2]

فهذه الأبيات قالها عند نزوله أكناف قرطبة حيث جمال الطبيعة والهواء النقى والماء العذب وكل مقومات المكان المحبب والتى انعكست آثارها على ذلك الشاعر فتغنى بها وبألفتها وعبر بصورة فنية تنم عن مدى الامتزاج الشعورى بينه وبين معالم ذلك المكان.

لقد شغف الشاعر الأندلسى بطبيعة تلك البلاد الفاتنة وأصبحت لديه أماكن الأندلس محببة إلى النفس يستنبط منها صوراً موحية بهذه الألفة وهذا ما نجده فى قول ابن عبد ربه:

تَحفُّ بهِ جنّاتُ دنيَا تَعَطفتْ ... لصائغهِ فى الحلى شاتيةً عَطلى

مُطبقةُ الأفنانِ طيبةُ الثرى ... محملةٌ ما لا تطيقُ لهُ حَمْلا

عَناقدُها دعمٌ تنوَّطُ بينَها ... وقد أشرقتْ علوًا كما أظلمت سُفلا

فجمالية الوصف الذى أضفاه على هذا المكان-البستان- هى متأتية من الأثر الذى تركه فى نفس الشاعر فحاول أن يعطيه أجمل الصفات والتشبيهات بأن ما أحيط بذلك المكان هو جنة دنيا طيبة الثرى، واستطاع الشاعر أن ينقل لنا تلك

---

(١) جعونة بن الصمة الكلابى من قدماء شعراء الأندلس والطارئين عليها وكان فى مرتبة جرير والفرزدق، لقب بعنترة الأندلس، ونزل بأكناف قرطبة، ينظر: جذوة المقتبس، ١/ ٢٩٣، ١/ ٣٢١، المغرب، ١/ ١٣١.

(٢) جذوة المقتبس، ١/ ٢٩٣.

(٣) ديوان ابن عبد ربه، ١٣٠-١٣١.

الأحاسيس المعبرة عن ذلك المكان بأسلوب مباشر بعيدا عن التكلف والإغراب.

ويمتلك المصحفي[1] (ت:٣٧٢هـ) الشعور نفسه تجاه الرياض حين وجد فيها ما يعبر عن خلجات نفسه التى شغفت بذلك المكان ولنستمع إلى قوله:

انظر إلى الروض الأريض تخاله ... كالوشى نُمْقَ أحسن التنميقِ

وكأنما السوسان صبّ مدنفٌ ... لعبت يداه بجيبه المشقوقِ

يوم الوداع ومزقت أثوابه ... جزعاً عليه أيما تمزيقِ

والنرجس الغضّ الذكى محاجر ... تعبت من التسهيد والتأريقِ

يحكى لنا لون المحبّ بلونه ... وإذا تنسّم نكهة المعشوقِ

وكأنّ دائرة الحديقة عندما ... جاد الغمام لها برشف الريقِ[2]

فقد ابتدأ المصحفى هذه الأبيات بفعل الأمر (أنظر) محاولا رسم صورة مرئية لذلك المكان وهذا الأسلوب لم يأت اعتباطا وإنما جاء وفقا لنظرة الشاعر المتفائلة واحتفاله بأجزاء ذلك المكان وحاول أن يبرز القيمة الجمالية للمكان من خلال الأوصاف الجميلة التى تنبئ عن موقفه النفسى تجاهه من جهة وعن رؤيته لواقعه من جهة أخرى فشبه أوراق السوسن بعاشق قد مزق جيبه يوم فراق الحبيبة، وكأن أزهار النرجس عيون قد أتعبها السهر والأرق فهذا الروض يحكى لنا حال المحب قد تغير لونه من البعد. فجاءت هذه التشبيهات لتؤكد مدى الارتباط بين الشاعر وهذا الروض.

---

(١) أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر بن عبدالله بن كسيلة القيسى كان لصيق المنزلة من المستنصر بالله قديم الصحبة، برع فى الكتابة والشعر، وأجاد فيهما، مر بنكبات كثيرة وألقى فى المطبق حتى هلك سنة (٣٧٢ هـ).ينظر: جذوة المقتبس، ١/ ٢٨٩، مطمح الأنفس، ١٤، ورايات المبرزين، ٦٩، المغرب،٢/ ٢٥٤.

(٢) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفى، محمد محمود يونس، مجلة آداب المستنصرية، بغداد، ع١٢، ١٩٨٥، ١٩٢.

وإلى هذه المعانى ذهب سعيد بن فرج[1] بقوله:

للـــروضُ حـــسنٌ فقـــفْ علـــيه ... واصـــرف عِـــنان الهَـــوى إلـــيهِ
أمـــا تَـــرَى نرجـــسًا نـــضيراً ... يُومـــــى إليـــــنا بمقلتـــــيهِ
نـــشر حبيبـــى علـــى ربـــاهُ ... وصُـــفرتى فـــوقَ وجنتـــيهِ[2]

حيث تتداخل الأمكنة (الروض) مع أوصاف معشوق ابن فرج- الذى لم يصرح به - وقد كان هذا التداخل حاصلا فى انسجام أوصاف الروض وأوصاف المعشوق، فابن فرج يدرك ما للروض من جمال وسحر ونضارة ويعرف ما يميز به حبيبه عن الآخر فأتى بكل هذا الانسجام والتآلف الذى لا نكاد نحس فرقا بين الإثنين فى الوصف أو المشاعر.

إن هذا الانسجام بين الأوصاف المادية (الروض-الطبيعة) والمعشوق (الشخص-الشاعر) جاء نتيجة الارتباط الذهنى الكائن فى نفس ابن فرج ومشاعره بين الاثنين فالطبيعة عند الشاعر الأندلسى كل شيء فى أدبه وفكره ومشاعره والمعشوق حالة نفسية يريد الشاعر أن ينقل تجربته إلى المتلقى بأى شكل كان، ولا ريب أن تكون الطبيعة أو أن يكون الروض هنا حاملا لأحاسيس الشاعر وعواطفه فالمكان الأليف-بأشكاله صورة نفسية تعكس الألفة والولاء للمكان الذى يعيش فيه الشاعر ومن ثم فهو أحداث وأحاديث يقصه علينا جراء تلك النفسية.

وثمة نوع آخر من الأمكنة التى ألفها الشعراء وهو المكان الدينى فكل شاعر يألف ما يوافق نفسه وهواه، فهذا الشاعر الفقيه عبد الملك السلمي[3] (ت:٢٣٨هـ)

---

(١) أبو عثمان سعيد بن محمد بن فرج أخوه أحمد بن فرج صاحب كتاب الحدائق، ينظر: الجذوة، ١/ ٣٥٤، المغرب،٢/ ٥٧.

(٢) جذوة المقتبس، ١/ ٣٥٤، البغية، ٢/ ٣٩١.

(٣) أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن عباس بن مرداس السلمى ألف كتاب الواضحة فى الفقه سمع بالأندلس وتفقه حتى صار أعلم من بها وقد جمع إلى علم الفقه والحديث اللغة والإعراب والأدب، ينظر: تاريخ علماء الأندلس، ١/ ٤٥٩، الجذوة،٢/ ٤٤٧، مطمح الأنفس، ٧١، البغية،٢/ ٤٩١، المغرب،٢/ ٩٦.

يجد ضالته فى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فراح يقول فيها:

لله درُّ عصابة صاحبتُها ... نحو المدينة تقطعُ الفلواتِ

ومهامه قد جُبتْها ومفاوزٍ ... مازلتُ أذكرُها بطول حياتى

حتى أتينا القبر قبرَ محمدٍ ... خصّ الإلهُ محمداً بصلاةِ

خيرُ البريّةِ والنبى المصطفى ... هادى الورى لطرائقِ الجنّاتِ

لّما وقفتُ بقربه لسلامه ... جادتْ دموعى واكفَ العبراتِ

ورأيتُ حُجرتُه وموضعهُ الذى ... قد كان يدعو فيه فى الخلواتِ

مع روضةٍ قد قال فيها إنها ... مشتقةٌ من روضةِ الجنّاتِ

وبمنزلِ الأنصارِ وسطَ قبابِهم ... بيتُ الهداية كاشفُ الغمراتِ

وبطيبة طابوا ونالوا رحمةً ... مغنى الكتاب ومحكم الآياتِ

وبقبرِ حمزةَ والصحابةِ حوله ... فاضتْ دموعُ العين مُنهمراتِ

سقيًا لتلك معاهدًا شاهدتُها ... وشهدتُها بالخطوِ واللحظاتِ

لازلتُ زوّاراً لقبرِ نبّينا ... ومدينةٍ زهراء بالبركاتِ[1]

فهو يجد فى تلك الديار عبق الماضى السعيد فشده نحو ذلك المكان شوق غامر وعاطفة جياشة نلمس آثارها من خلال تذكره لذلك الماضى وبكل جزئياته من قطعه للصحراء والمفارز حتى وصوله إلى قبر النبى محمد صلى الله عليه وسلم ذلك المكان الذى ارتبط به ارتباطا روحيا ونفسيا فيصف لنا شدة الموقف وعند وقوفه على قبر الرسول وقبور الصحابة فيبدى علامات الحب وتظهر علامته من خلال البكاء، فضلا عن ذلك فإن الشاعر قد لجأ إلى استخدام كثافة مكانية عالية من خلال هذه الأبيات (حجرته، روضة، منزل الأنصار،قبر الرسول، قبر حمزة

(١) نفح الطيب، ١/ ٤٦

والصحابة) وكل هذه الأماكن تعكس رؤية الذات الفكرية وعمق الصلة والإحساس الدقيق بتلك الأماكن ثم يلجأ إلى الأسلوب التقليدى لدى الشعراء وهو الدعاء بالسقيا لتلك الديار. وقد اتسمت هذه الأبيات بعاطفة صادقة وأحاسيس مرهفة كان أساسها الخلفية الدينية للشاعر والتعلق والشوق إلى تلك الأماكن، هذه الخلفية الدينية خلقت نوعا من الألفة بين الشاعر والأماكن المقدسة هذه.

ويبدو أن المكان يصبح مألوفا بساكنيه الذين يألفهم المرء ويتودد إليهم وعلى العكس من ذلك فإن المكان يصبح غير مألوف ما لم يألف الناس الذين يعيشون فيه فالسجن على الرغم من كونه مكانا معاديا يصبح مألوفا لدى محمد بن مسعود البجاني[1] (ت:٤٠٠هـ) لكون ذلك المكان ضم الأمير الشريف الطليق فراح يبارك ذلك المكان ويألفه من خلال قوله:

غدوتُ فى الجبِّ خدنًا لابن يعقوب ... وكنت أحسب هذا فى التكاذيبِ
رأت عداتى تعذيبى وما شَعَرتْ ... أن الذى فعلته ضدَّ تعذيبى
راموا بعادى عن الدنيا لا أبا لهمُ ... قد كان غاية آمالى ومرغوبى
يا ابن الخلائف من مروان واحزنى ... على ضياعك يا ابن الصبية الشيبِ
وفيك ما يتسلى العاشقون به ... من حسن خلق ومن ظرفٍ ومن طيبِ
بلى قد فجعت نفسى لمحتجبٍ ... قد كان عن لحظ عينى غير محجوبِ[2]

فقد تحول السجن فى هذه الأبيات إلى مكان يألفه الشاعر ورأى أن الذى فى سجنه ليس من التعذيب فى شيء، وإنما هو الراحة فعداة الشاعر أرادوا إبعاده عن

---

(١) أبو عبد الله محمد بن مسعود البجانى أصله من بجانه وسكن قرطبة فنسب إليها، كان كثير الشعر جزل المقاطع، حسن المطالع، جيد الابتداء، لطيف الاختراع، وفد على المنصور بن أبى عامر واتهم بزهق فى دينه فسجنه بالمطبق مع الأمير الطليق توفى بعد (٤٠٠هـ). ينظر: جذوة المقتبس، ١/ ١٥١، الذخيرة، ١/ ١/ ٥٦٢-٥٦٣، البغية، ١/ ١٧٠، نفح الطيب، ٣/ ٣٨٨.

(٢) الذخيرة، ١/ ١/ ٥٦٣.

الدنيا وزينتها إلا أنهم بإدخالهم الشاعر للسجن قد قربوه من الدنيا وما ذلك إلا لكونه - أى السجن - يضم الأمير.

ونلمح فى هذه الأبيات أثرا للقصص القرآنى حيث شبه سجنه بجب يوسف عليه السلام إلا أن الفارق بينهما هو أن البجانى قد ألف هذا المكان على العكس من مكان يوسف فراح يتغنى بصفات وجمال المكان الذى جمعه مع الأمير فأصبح غاية آماله ومناه.

ويمكن القول أن الأندلس فى أغلب أماكنها أصبحت مكانا للألفة بما ضمته من جمال طبيعى منحت الشعراء ((خيالا جميلا وتشابيه حلوة فكانت الرقة والنعومة ميزة أسفارهم والفضل فى ذلك للأندلس وما لربوعها من تأثير فى نفوسهم حتى كان حبهم لها عبادة)) [1].فضلا عن ذلك فإن المجتمع الأندلسى كان يميل إلى التسامح الدينى فلا فرق بين عربى وبربرى زيادة على الاستقرار السياسى والامتزاج الاجتماعى وما واكبه من رخاء فى العيش وكثرة فى الأموال حتى استأنست النفوس وبدأ الشعراء يتغنون بذلك الفردوس وأحسوا تجاهه بألفة وأمان حتى قال البعض فيها:

**لله أنـــدلس ومـــا جمعـــتْ بهـــا ... مـــن كـــلِّ مـــا ضـــمت بهـــا الأهـــواءُ**

**فكأنمـــا تلـــك الـــديار كـــواكبٌ ... وكأنمـــا تلـــك الـــبقاعُ سمـــاءُ**

**وبكـــل قطـــر جـــدول فـــى جـــنةٍ ... وَلعـــت بـــه الأفـــياءُ والأنـــداءُ**[2]

أى تعلق هذا وأى إعجاب بتلك البلاد فهى جامعة لكل ما ترغب فيه النفوس فهى أشبه بالكواكب الشامخة فى وسط السماء وفى كل مسافة جدول. إن هذا الإعجاب مرده إلى التلاحم والارتباط الذى انعكس إيجابا فى شعرهم.

---

(١) أدباء العرب فى الأندلس وعصر الانبعاث، بطرس البستانى، دار مارون عبود، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٩هـ، ٧٠.

(٢) نفح الطيب، ١/ ٢٢٦-٢٢٧.

ومن خلال هذا العرض لأبرز الشواهد الشعرية التى جسدت المكان الأليف وجدنا أن الشاعر الأندلسى قد ألف تلك الربوع والقصور والرياض والأمكنة الدينية والأندلس بصورة عامة أصبحت المكان المحبب لهم واستطاعوا من خلال تلك الأماكن إظهار أحاسيسهم الصادقة تجاهها وألف بعضهم المكان المعادى لألفة أصحابه. ويمكن القول أخيرا إن الشاعر الأندلسى استلهم كل عناصر المكان المحبب ووظفها فى شعره حتى خرجت ألفاظهم سهلة وعباراتهم جزلة ومعانيهم واضحة تنم عن التلاحم بين الشاعر والمكان الذى ألفه.

obeikandl.com

## المبحث الثانى

## المكان المرفوض (المعادى)

هـو المكـان الـذى أجبـرنـا علـى العيـش فيه ولا نشعر تجاهه بأى ألفة بل الشعور نحوه بالعداء والكراهية ولعل من أبرز هذه الأماكن هى السجون والمعتقلات[1].

والسجن هو أول الأماكن العدائية فهو ((بؤرة الحصار المكانى بل ويمكن عده نقيضا لباقى الأمكنة إذ يظل معبرا عن حضور الموت والقمع وتسييج الذات ومحاصرتها ماديا، وإذا كانت الأمكنة الأخرى تحاصر الذات معنويا وفكريا بحصار تعيشه هذه الذات على مستوى الوعى، فإن حصار السجن فضلا عن ذلك حصار مادى يعاش فيه على مستوى الجسد كفعالية حيوية وهو تصعيد لمفهوم العقوبة بخلاف الأمكنة الأخرى التى تعد تعبيرا عن حضور الروادع الاجتماعية المتعارف عليها )) [2]. وهذا المكان حفز الشعراء وأيقظ ملكاتهم الشعرية، ليعبروا عما يقاسونه من الآلام والمعاناة وهذه المعاناة تضعف وتقوى حسب نفسية كل شاعر ومدى قسوة الظروف التى تمر به داخل السجن لذلك فأشعارهم فى ذلك المكان هى انعكاس نفسى لحالة الشاعر.

وكثيرا ما شكى الشعراء من ذلك المكان وهذه ((الشكوى حاجة نفسية منبعثة من نقص حاجة وإذا كان الطليق من الناس يشكو فحرى بمسلوب الحرية أن

---

(١) ينظر: البناء الفنى فى الرواية العربية فى العراق، ١٢٧، وشعرية المكان فى الرواية الجديدة، ١١١.

(٢) الفضاء الروائى عند جبرا إبراهيم جبرا، د. إبراهيم جندارى، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ٢٠٠١م، ٢٤٢.

يشكو، ليجد فى شكواه متنفسا يخفف من ثقل القيود التى ألمت به)) [1] وشعر السجون والشكوى منه قديم قدم الشعر الجاهلى، فقد دخل العديد من الشعراء إليه فجادت قرائحهم بما يعبر عن تلك المعاناة[2].

وكان من الطبيعى أن يكون للشعر الأندلسى نصيب وافر من هذا اللون ولا سيما فى فترة الفتح (٩٢-٤٢٢هـ) وأرجع الدكتور إحسان عباس بروز هذا اللون من الشعر إلى ((الصراع السياسى واشتراك الشاعر فى الحياة السياسية وتقلباتها، وامتزاج السياسة والشعر فى شخصية واحدة، واضطراب حبل الأهواء من حال إلى حال، فى فترات متقاربة)) [3] زيادة على ذلك يمكن أن نرجع بروز هذا اللون من الشعر إلى المؤامرات وسعايات الحساد والوشاة والتنافس على هبات الأمراء، مما يدفع الحساد إلى الإيقاع بالشعراء وتوغير صدر الحاكم عليهم، والإلقاء بهم فى غياهب السجون. فضلا عن الجرائم الدينية والدنيوية التى توجب إدخال مرتكبها السجن.

وشعر السجون يصور لنا ((نفسية الشاعر السجين قلقة حائرة تتأرجح بين تيارات نفسية متضادة فهى مرة ثائرة أبية ومرة خانعة ذليلة)) [4]. ومن داخل ذلك المكان بث شعراء الأندلس آلامهم وأحزانهم والتفجع لما أصابهم فهذا هشام ابن عبد العزيز[5] يرسل من سجنه أشعاره المؤثرة إلى جاريته (عاج) حيث يقول لها.

---

(١) شعر السجون فى العصر العباسى حتى نهاية القرن الرابع الهجرى، هادى مدح زغير (رسالة ماجستير) كلية الأداب، الجامعة المستنصرية، ١٩٩٦م، ١١٧.

(٢) ينظر: أدباء السجون، عبد العزيز الحلفى، دار الكتاب العربى، (د.ت)،١١.

(٣) تاريخ الأدب الأندلسى عصر سيادة قرطبة، د.إحسان عباس، ط١، ١٩٦٠م، ٧٨.

(٤) شعر السجون والأسر فى الأدب العربى (بحث)،د. هادى الحمدانى، مجلة كلية الآداب ، ع١٣، ١٩٧٠م، ٥٦٣.

(٥) هشام بن عبد العزيز بن هشام يكنى بأبى خالد، كان وزيرا للأمير محمد بن عبد الرحمن الذى حكم بين ٢٣٨-٢٧٣هـ واستمر فى مكانته حتى نكبة الأمير منذر بن محمد وقتله الأمير ٢٧٣ هـ لأشياء حقدها عليه بعد أن سجنه، ينظر: جذوة المقتبس، ٢/ ٥٨١، الحلة،، ١/ ١٣٧-١٤٢،تاريخ الأدب العربى، عمر فروخ، ٤/ ١٣١.

وإنّـــى عدانـــى أن أزورك مطـــيقٌ ... وبـــابٌ منـــيعٌ بالحديـــدِ مـــضبّبُ
فـإن تعجبـى يـا عـاجُ مـا أصـابنى ... ففـى ريـب هـذا الدهـر مـا يـتعجبُ
وفـى الـنفس أشـياء أبـيت بغمِّهـا ... كأنـى علـى جمـر الغـضا أتقلـبُ
تـركت رشـاد الأمـر إذ كـنت قـادرًا ... علـيه فلاقـيت الـذى كـنت أرهـبُ
وكـم قائـلٍ قـال أنـجُ ويحـك سـالمًا ... ففـى الأرض عنهم مستزاد ومذهبُ
فقلـــت لـــه إن الفـــرارَ مذلـــةٌ ... ونفسى على الأسواء أحلى وأطيبُ
سأرضـى بحكـم الله فـيما ينوبنـى ... ومـا مـن قـضاء الله للمـرء مهـربُ
فمـن يـك مـسرورًا بحـالى فإنـه ... سينهل فى كأسى وشيكاً ويشربُ[1]

فالشاعر يصف لنا باب السجن (المضبب) بالحديد أى الملبس به ويناجى جاريته، لأنه يجد فى هذه المناجاة ما يخفف من عبء المصيبة الواقعة عليه فى ذلك المكان وهذه المناجاة تعكس لنا معاناة السجين وقسوة ذلك المكان ومنعته، وعلى الرغم من هذا كله، فإن الشاعر ذو همة عالية أبى أن يفر قبل أن يقبض عليه فاستسلم لقضاء الله راضيا بما كتب عليه.

وإلى هذا الأسلوب الشعرى لجأ سعيد بن جودي[2] (ت:٢٨٤هـ) حين قال:

خليلـى صـبرًا راحـةُ الحـرِّ فـى الـصَّبْرِ ... ولا شيء مثل الصَّبر فى الكرب للحُرّ
فـلا تيأسـا مـن فـرحةٍ بعـد تـرحةً ... وأن تأبـيا باليُـسرِ مـن بَعْـدِ عُـسرِ
فكـم مـن أسيرٍ كـان فـى القـدِّ موثقًا ... فأطلقـهُ الـرحمنُ مـن حلـق الأسـرِ
لـئن كـنتُ مأخـوذا أسـيراً وكُنـتما ... فليس على حربٍ ولكن على غدْرِ
ولو كنتْ أخشى بعض ما قد أصابنى ... حمتنـى أطـراف الـردينية الـسمر

(١) الحلة السيراء، ١/ ١٤٠-١٤١.

(٢) أبو عثمان سعيد بن سليمان بن جودى بن أسباط بن إدريس السعدى، يتصل نسه بأسرة تعرف بالرياسة، وكان من أعوان الزعيم سوار بن حمدون، خاض عدة معارك حتى سقط أسيراً، وقيل: قتل سعيد غيلة وغدرا سنة ٢٨٤هـ. ينظر: جذوة المقتبس، ١/ ٣٥٦، بغية الملتمس، ٢/ ٣٩٣.

فقد علم الفتيانُ أنّى كميُّها ... وفارسُها المقدامُ فى ساعةِ الذُّعر

فيا ظاعنًا أبلغْ سلامى تحية ... إلى والدى الهائمين لدى ذكرى

وأدِّ إلى عرسى السلامَ وقل لها ... عليك تحيّاتى إلى موقفِ الحشرِ

بهمَّكِ ألقى خالقى يوم موقفى ... وكربكِ أقضى لى من القتلِ والأسرِ

وإن لم يكنُ قبرٌ فأحسنُ موطنًا ... من القبرِ للفتيانِ حوصلةُ النسرِ[1]

فالشاعر يفتح نصه بالرمز التقليدى بخليلى، ليحاول من خلاله بث لواعجه ومشاعره وآهاته التى كثرت، فمن نكوص من الخلان والأقارب إلى السجن والأسر إلى القبر والزوال.

ويوفق سعيد بن جودى فى هذه الافتتاحية فيوسع الشكوى ويعرج على ذكر المصائب التى حلت به وهو فى هذه يبغى جانبين هما الأول: التوسع فى إسهاب الكلام عن مشاعره وخيبة أمله فهى ناحية شكلية غاية الشاعر منها إبراز ما يمكن إبرازه من تجاربه الشخصية ونقلها إلى المتلقى عبر هذه الوثيقة النفسية-الشعر- والجانب الثانى هو استيعاب تفعيلات الطويل نحو القافية السهلة الشائعة الورود- الراء-ناهيك عن حسنه فى استخدام الطويل فى هذه الشكوى فهو بحر ((يمتاز بالرصانة والجلال فى نغماته وذبذباته المنسابة الهادئة لهذا فهو أصلح البحور لمعالجة الموضوعات الجدية التى أكثر منها العرب))[2].

والمكان غير خاف عن مشاعر سعيد وألفاظه، فكلمات الأسر شائعة فى النص هنا وهناك، ولا شك أنها حالة تفسية لا تجد بدا من تكرارها كلما سنحت الفرصة للتعبير عن مشاعر الرفض والكره والعداء وربما جاء سعيد بن جودى بالقبر فى

---

(١) سعيد بن جودى السعدى الألبيرى الأندلسى سيرته ومجموع شعره، تأليف: د.محمد رضوان الداية، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبى ، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر ،دمشق،ط١، ١٩٩٧م، ٨٤-٨٥.

(٢) شرح تحفة الخليل فى العروض والقوافى،د. عبد الحميد راضى، مؤسسة الرسالة، بغداد، ط٢، ١٩٧٥م، ١٠٤.

نهاية الأبيات ظنا منه أنه قد يخفف عنه بلواه وشكواه ولا سيما وأنه متأكد من مصيره لا مفر منه إن أحسن من القبر، ليضم جثمانه هى حواصل النسور، ولا يخفى أن الشاعر الأندلسى ما زال يتابع ذلك التقليد المشرقى الذى يرى أن عادة الفرسان أن يموتوا فى المعارك وأن تكون قبورهم بطون النسور..فالجودى بعد كل هذه المشاكل لا يرى منازعا من إسباغ صفات الفخر والهمة والشجاعة على نفسه، ولا يلبث أن يرضى بمكانه والمصير الذى آل إليه، وأن يعرف به كمكان مذموم فيهجوه ويصب عليه جام غضبه كلما وجد الطريق سانحا والفرصة مواتية له.

إن هذا المكان كان الدافع الأهم فى نظم النص والجالب لذلك الألم وتلك الشكوى، كما أنه المستدعى لهذا الفخر والمدح، فعليه-المكان المعادي- يكون الذم والعداء وفيه تنتج مثل هذه القصائد القيمة فى المشاعر والدلالات.

إن المكان المعادي-السجن- تعبير عن تجربة ألم عانتها النفس الأسيرة المعذبة فالشعراء ((وفوا حالاتهم النفسية من ضمن وصفهم للسجون والمنافى، وذلك لأن شعر السجون يكون أغلبه وصفا وتصويرا لحالة الشاعر وما يلاقى فى ذلك السجن من عناء وألم القيود ))[1] حيث ينفث الأنفاس والزفرات الملتهبة الناتجة عن وحشة المكان فتتلاشى عنده الآمال ويضيق ما رحب به المكان فينقلب ماضيه السعيد وأيامه الجميلة إلى أشواك تدميه وتحيل ألوان الحياة إلى سواد قاتل وإلى هذه المعانى ذهب الوزير عبد الملك الجزيرى[2] (ت:٣٩٤ هـ) بقوله:

**أِلــوى بعــزم تجلُّــدى وتــصبرى ... نــأى الأحــبة واعتــياد تذكّــرى**

**شــحطَ المــزارُ فــلا قــرارَ ونافــرتْ ... عينــى الهجــوع فــلا خــيالٌ يعــترى**

---

(١) شعر الأسر والسجون الأندلسى فى عصرى الطوائف والمرابطين، جازم شاحوذ الهيتى (رسالة ماجستير) كلية التربية، جامعة الأنبار، ١٩٩٦م، ٣٨.

(٢) عبد الملك بن إدريس الجزيرى يكنى بأبى مروان، كان عالما وأديبا ومعدودا من أكابر البلغاء ومن وزراء الدولة العامرية، وكاتب المنصور بن أبى عامر ثم ولده المظفر عبد الملك، سجنه المظفر وقتله بعد ذلك عام ٣٩٤هـ. ينظر: جذوة المقتبس، ٢/ ٤٤٤، مطمح الأنفس، ٣٠، الصلة، ٢/ ٥٢٢.

أزْرَى بصبرى وهو مَشدُود القوى ... وألان عُودِى وهو صُلب المكسرِ
وطــوى ســرورى كلَّــه وتلــذذى ... بالعــيش طــى صــحيفةٍ لم تنــشرِ
هــلا بمــا ألقــى الحبــيب تــوهُّماً ... بــضميرِ تــذكارى وعــينِ تفكّــرى
عجـبًا لقلبـى يـوم راعتـنا الـنوى ... ودنــا وداعــك كــيف لم يتقطّــرِ(١)

فهذه الأبيات اتسمت بطابع الشوق والحنين، فقد انهار صبره وتجلده فى هذه المصيبة، والذى قضى عليه هو ابتعاده عن الأحبة إلى جانب مصيبته فى السجن، فهذا المكان قد أبعد الزوار وأبعد النوم عن عينيه فهو لا يرى الأحبة حتى فى المنام فالسجن قد ألان عوده وطوى سروره وأيامه الخالية السعيدة مع الأحبة مما يدفع إلى توهم لقاء أحبته مسترجعا ذكرياته.

ويبدو أن الوزير قد ضاق ذرعه بالسجن فرسم لنا ذلك المكان وبدلالة موحية إلى قساوة الحياة داخل هذه الأمكنة وشدة معاناته فيها وتأثره الكبير لما لقى فيه فيصف لنا الريح التى تهب فى السجن بأنها ريح صرصر عاتية باردة تحمل الشر والبؤس والقساوة حتى أوصلته ورمته تلك الرياح فى أحضان العجز والاستسلام فراح يقول:

فى رأس أجرد شاهق عالى الذرى ... مــا بعــده لمــوحد مــن معمــرِ
يــأوى إلــيه كــلُّ أعــور ناعــق ... وتهــبُّ فــيه كُــلُّ ريــح صرصــرِ
ويكــاد مَــن يرقَــى إلــيه مــرَّة ... فــى عُمـره يـشكو انقطـاع الأبهـرِ(٢)

فهذا المكان المنقطع عن العالم يصوره الشاعر مكانا للغربان الناعقة فكيف يعقل لبشر أن يصل إليه، فضلا عن ذلك فإن هذا الوصف أظهر فيه قساوة المكان ووحشيته.

---

(١) يتيمة الدهر، للثعالبى، شرح وتحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣ م، ٢/ ١١٧؛ وينظر: مطمح الأنفس، ٣١-٣٢.
(٢) مطمح الأنفس، ٣١.



obeikandi.com

وينتاب الجزيرى شعور غريب فى ذلك المكان حيث أحس بأن الخروج من هذا المكان شيء مستحيل، لذلك لجأ إلى ألفاظ فلسفية ممتزجة بالحكمة فيرى أن العلم أرفع مرتبة يمكن أن يصلها الإنسان فيقول:

واعلــم بــأن العلــم أرفــع رتــبةً ... وأجــلُّ مكتــسب وأســنى مفخــرِ

.................................................. ..................................................

كــم مــن أخ يلقــاك مــنه ظاهــر ... بـــادٍ ســـلامته وباطـــنه وري

واشــرح لكــل ملمــة صــدراً وخــذ ... بالحــزم فــى كــل الأمــور وشمّــرِ

واستنصح البر التقى وشاور الفطن ... الذكــى تكــن ربــيحَ المتجــرِ[1]

وهذه الرؤية مردها إلى السجن وما رأى فيه من قساوة وشدة وتقييد للحرية فصاغ هذه الألفاظ والمعانى، لتعبر عن تلك التجربة وما يختلج فى صدر الشاعر من مشاعر وأحاسيس.

ويترك المكان المعادي-السجن- أثره فى نفسية الجزيرى وبها تجسّد فيه من رهبة ووحشة وعدائية دفعت به إلى أن ينظم أبياتا محاولا فيها إيهام نفسه الحزينة بأن الذى بينه وبين المنصور مجرد جفوة محاولا تخفيف العبء عليه من خلال هذه الأبيات:

قالــوا جفــاهُ ثلاثــاً ثــم غــرَّ بــهِ ... فلــيس يــرجو لديــه حظــوة أبــدا

جــاروا ومــا عدلــوا فــى القــول بــل ... حكموا على المقادير جهلا لاهُدُوا رَشَدَا

ومـــا المهـــذب إلا مـــن تعـــرّفه ... زمانـــه مخطـــئاً طـــوراً ومعـــتمداً

مــن لم يــذق طعــم بؤســاه وشــدتها ... لم يــدرِ لــذة نعمــاه ولا وجــدا[2]

---

(١) يتيمة الدهر، ٢/ ١١٧-١١٨.

(٢) أعتـاب الكتاب، ابن الأبار أبو عبدالله محمد (٦٥٨هـ)، تح: د. صالح الأشتر، ط١، ١٩٦٦م، ١٩٤

ونلمس فى هذه الأبيات طابع الحكمة ولا سيما فى البيتين الأخيرين فمن لم يقاس ويذق طعم البؤس لم يعرف طعما للذة، وهذه كلها أنفاس بثها للتخفيف عن اليأس الذى انتابه فى ذلك المكان .

ويحن الشاعر وهو فى سجنه إلى مواطن اللهو والحرية وهذا الاختلاف فى المشاعر راجع إلى امتزاج عواطف الخوف بالأمل، واليأس بالرجاء، للخلاص من هذا المكان فتكون ثمرتها شعرا تُجسّد فيه صدق العاطفة[1]. وهذا ما نلمسه عند الشاعر أبى الإصبغ حين قال:

| | |
|---|---|
| رويُــدك أيّهــا الــشوقُ المذكّــى | لــنار صَـبابتى بالِمْهــرجانِ |
| لقــد أذكــرتَ منــى غــير نــاسٍ | وهجــتَ لى الــصّبابة غــير وانِ |
| أيــومَ المهــرجان أعــذراً فحــالى | تــراها فــى الــبلاء كمــا ترانــى |
| ولــو لم ينــثنِ طــيف وقــيد | لــرحتُ وقــيد لى قــصبَ الــرهانِ[2] |

فمشاعر الحزن التى انتابته، راح يتذكر من خلالها أيامه السالفة التى كان يلهو فيها لكن هيهات لهذه الأيام أن تعود فقد ضم السجن جسده وقيد بالأغلال، ومنع من قصد المهرجان وأيام اللهو.

ويصف لنا أبو الإصبغ[3] شدة ضيق السجن وظلامه حيث يتساوى فيه الليل والنهار فينقل لنا صورة ذلك المكان المؤلمة وما فيها من الأسى والتوجع فيقول:

| | |
|---|---|
| ليت شعرى كيف البلادُ وكيف الـ | أنــس والــوحش والــسَّما والمــاءُ |
| طـال عهـدى عـن كـل ذاك ولَيلِـى | ونهــارى فــى مقلتَّــى ســواءُ |

---

( ١ ) ينظر: شعر السجون فى الأندلس فى القرنين الثالث والرابع الهجريين (دراسة فنية)، د. نزهة جعفر حسن، مجلة التربية والعلم، كلية التربية، جامعة الموصل، ع١٢، ١٩٩٣م، ١١٤ .

( ٢ ) جذوة المقتبس، ٢/ ٤٥٦.

( ٣ ) عيسى بن الحسن كان من شعراء الدولة العامرية وكان ممن باطن عبد الله بن المنصور بن أبى عامر فلما ضرب أبوه عنقه سجن أبا الإصبغ. ينظر: المغرب، ١/ ٢١٢.

لـيس حظـى مـن البـسيطة إلا قـدر قـبرٍ صـبيحة أو مـساءُ
وإذا مـا جَـنَحتُ فـيه لأُنـسٍ أوحَـشَتْنِى بأُنـسْها الأغبـيَاء[1]

لقد أرهق السجن كاهل الشعراء، فهذا المصحفى كان أشد معاناة ((فبقى سنين فى مهوى النكبة وجوى تلك الكربة ينقله المنصور معه فى غزواته ويعتقله فى أظفار التضييق أو فى لهواته، وهو يستعطف ويستميل فلا يتحقق له رجاء ولا تأميل إلى أن تكورت شمسه، وقاضت بين أنياب المحن نفسه))[2] فراح يبث شكواه بأشعار تفيض حزنا من ذلك المكان الذى عانى قسوته وشعر تجاهه بالعداء وكان هذا الإحساس منذ أن سبق به إلى مجلس الوزارة للمحاسبة حيث يقول:

لا تأمـنن مـن الـزمان تقلـبا إنّ الـزمان بأهلـه يـتقلبُ
ولقـد أرانـى والليـوث تخافنـى وأخافنـى مـن بعـد ذاك الـثعلبُ
حـسب الكـريم مذلّـة ونقيـصةً ألا يـزال إلى لئـيم يطلـبُ
وإذا أتـت أعجـوبة فاصـبر لهـا فالدهـر يأتـى بالـذى هـو أعجبُ[3]

فهو يرى أن الزمان متقلب فلا يغتر الإنسان بزخرف الرخاء والنعيم، لأن نكبات هذا الدهر نازلة بالإنسان لا محالة، ورامية به فى مكان الرذيلة والمآسى.

وأخذ المصحفى فى نكبته يعزى نفسه، متحليا بالصبر، متذكرا أيام العز والترف حيث يقول:

صـبرتُ علـى الأيـام لمـا تـولت وألـزمت نفسى صـبرها فاسـتمرتِ
فـوا عجـبًا للقلـب كـيف اعترافـه وللـنفس بعـد العـزّ كـيف اسـتذلتِ
ومـا الـنفس إلا حـيث يجعلـها الفتى فـإن طمعـت تاقـت وإلا تـسلتِ

---

(١) المغرب، ١/ ٢١٢.
(٢) البيان المغرب، ٢/ ٢٥٦.
(٣) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفى، ١١٧.

وكانت على الأيام نفسى عزيزة		فلما رأت صبرى على الذل ذلت
فقلت لها يا نفس موتى كريمة		فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت[1]

فذلة ذلك المكان واضحة ويعترف بتلك الذلة بعد العز والرفاه والذى تمتع به ويعترف بأنه لم يعد يستطيع إلا أن يكون ذليلاً، لأن صبره على الذل المتواصل أذل نفسه وأهانها. واستطاع المصحفى إظهار التلاحم والاندماج بين الزمان والمكان، فالزمان متجسد بالعودة إلى الماضى وتذكر أيام عزه، أما المكان فيتمثل من خلال العداء والرفض الذى فرضه المكان على الشاعر.

والمخطط الآتى يوضح جدلية المكان والزمان على الذات الشاعرة السجينة:

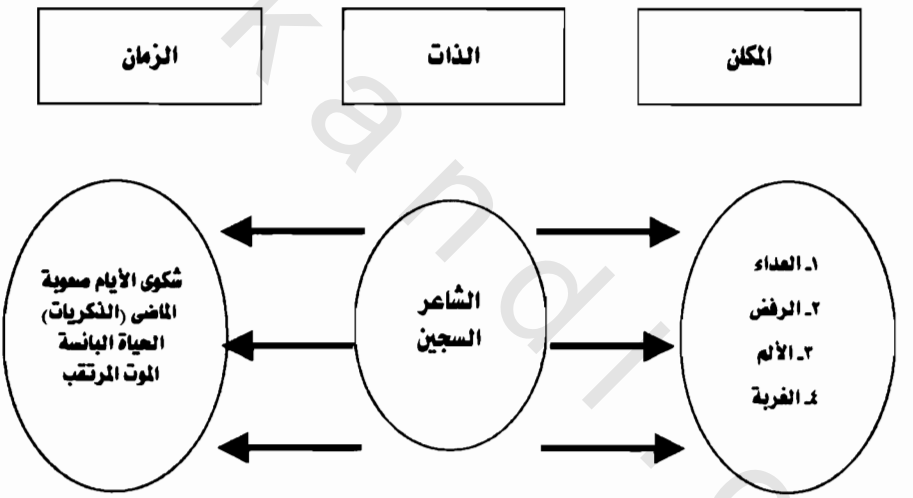




إن السجن مكان مخيف يثير الرهبة فى قلوب نزلائه فيلج هذا النزيل إلى تذكر أيامه السالفة، لعله يجد فيها ما يقلل من رهبة هذا المكان، وهذا الشعور نلمس آثاره فى قول المصحفى:

تأملتُ صروفَ الحادثات فلم أزل		أراها توفّى عند موعدها الحرّا
فلله ايام مضت لسبيلها		فإنى لا أنس لها أبدًا ذكرا

(١) المصدر نفسه، ١٨٠.

تجافت بها عنّا الحوادث برهة ... وأبدت لنا منها الطلاقة والبشرا

لياليَ لم يدرِ الزمان مكاننا ... ولا نظرت منا حوادثه شزرا

وما هذه الأيام إلا سحائبُ ... على كل أرضٍ تمطر الخيرُ والشرّا[1]

وبدو أن المصحفى قد طال به الأمد فى ذلك المكان وتضاعفت عليه الأقدار فراح ينظم إلى المنصور بن عامر أبياتا يصف فيها حاله وما وجد من مأساة حيث يقول:

عفا الله عنك إلا رحمة ... تجودُ بعفوك إن أبعدا

لئن حِلّ ذنب ولم أعْتمده ... فأنت أجلُّ وأعلى يدا

ألمْ ترَ عبداً عدا طوره ... ومولى عفا ورشيدًا هدا

ومفسد أمر تلافيته ... فعاد فأصلح ما أفسدا

أَقِلْنِي أقالك من لم يزل ... يقيك ويصرف عنك الردى[2]

إن عددا من الألفاظ الموحية بالحزن والمعاناة والمأساة قد ترددت فى هذه الأبيات ومنه (إلا رحمة، عفوك، عبدا عدا، أقلني) وغيرها من الألفاظ التى تنم عن إحباط النفس والإذلال وانعكاس لآلام نفسه المقيدة فى ذلك المكان الرهيب.

ويبلغ المصحفى أن قوما قد توجعوا وتفجعوا مما وصل إليه حاله[3] فكتب إليهم قائلاً:

أحنُّ إلى أنفاسكم فأظنها ... بواعث أنفاس الحياة إلى نفسى

وإنَّ زمانًا صرت فيه مقيداً ... لأثل من رضوى وأضيق من رمسِ[4]

---

(١) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفى، ١٨٤.

(٢) المصدر السابق، ١٨١.

(٣) ينظر: مطمح الأنفس،٢٢.

(٤) ما تبقى من شعر الحاجب المصحفى، ١٨٦،رضوى: جبل بالمدينة المنورة.

إنها معاناة قد أثخنت جراحها وأصبحت عليه هذه المعاناة كالجبال ثقلا والقبور ضيقاً، وينفذ صبر المصحفى فيكتب أبياتا إلى المنصور نجد فيها نبرة الجدية فى طلب العفو حيث يقول:

هبنـى أسـأت فـأين الفـضل والكـرم ... إذ قادنـى نحـوك الإذعـانُ والـندمُ
يـا خـير مـن مُـدتّ الأيـدى إلـيه أمـا ... ترثـى لـشيخ نعـاه عـندك القلـمُ
بالغتَ فى السّخطِ فاصفح صفح مقتدر ... أن المَلـوك إذا مـا اسـترحموا رحمـوا[1]

ونجد عبد الله بن عبد العزيز[2] (٣٩٠هـ) أحد من عاش تجربة ذلك المكان وأضناه وضاق به ذرعا، فقال به أبياتا يستشفع بالحاجب عبد الملك إلى أبيه المنصور بن أبى عامر، ليطلق سراحه قائلاً:

ألا أيهـا الحاجـب المرتجـى ... وأكـرم مـن كـان أو مـن يكـونُ
دعـوتكَ دعـوة مستـصرخٍ ... أحاطـت بـه وأثخنـته المـنونُ
فـإن لم تُعِنّـى فمـن ذا الـذى ... يلـوذ بـه الخائـف المـستكينُ[3]

فألفاظ الشاعر المتمثلة (بدعوة مستصرخ، أحاطت به المنون، يلوذ) كلها ألفاظ تنم عن شدة معاناة الشاعر وما يقاسيه داخل السجن فجعلت منه ينفث هذه الألفاظ بعاطفة صادقة ملتهبة بالحرارة

ويرسم لنا الشريف الطليق صورة مرهبة للمطبق[4] الذى ألقى فيه حين قال:

---

(١) المصدر نفسه، ١٩٦.

(٢) عبد الله بن عبد العزيز القرشى من أولاد الحكم الربضى لقب بالحجر، اتهم بالاشتراك مع عبد الله بن محمد بن أبى عامر فى مؤامرة ضد أبيه لم تنجح فسجنه المنصور فى المطبق، وكان شاعرا وأديبا، توفى (٣٩٠هـ). ينظر: جذوة المقتبس، ٢/ ٤١٥، البغية،٢/ ٤٤٩، الحلة السيراء،١/ ٢١٦.

(٣) الحلة السيراء، ١/ ٢١٩

(٤) من سجون الأندلس يقع تحت الأرض فى مدينة الزهراء وسمى ببيت البراغيث. ينظر: البيان المغرب، ٢/ ٢٧٠، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ٣٢٥. ينظر: البيان المغرب، ٢/ ٢٧٠، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ٣٢٥، وينظر: قصر الزهراء فى الأندلس،٥٦.

فــى منــزلٍ كالليــلِ أســودَ فــاحمٍ ... داجــى النواحــى مظلــم الأثــباجِ
يــسودُّ والزهـــراء تـــشرق حـــوله ... كالحـــبرِ أودعَ فـــى دواة العـــاجِ[1]

فهنا يركز الشاعر فى رسم هذا المكان على الألوان لا سيما الأسود الذى هو رمز العداء والظلمة والوحشة والتفرد، وهل تصدق هذه الألوان إلا على السجن؟

أو هل يزداد المرء كراهية وحقدا إلا له ولمن أدخله بين قضبانه وحديده؟

فالشريف يوسع فى هذه الظلمة وذلك السواد، ولعل الألفاظ فى البيت الأول تكفينا هما إذا ما أردنا التعرف على حقيقة ذلك المكان.

منــزل ـ الليــل(اســود فــاحم) ... داجــى النواحــى+مظلــم الأثــباج

ولا يكتفى الشريف بكل هذه الألفاظ الدالة على لون واحد هو السواد بل يأتى بالبيت الثانى، ليوسع ذمه لمكانه ويترك فى سواد واحداد جالبا له ما يميزه من حيث إنه المسود وسط إشراق قصر الزهراء (كأنه الحبر أودع فى دواة العاج) ولا يخفى أن التشبيه الحاصل فى الشطر الثانى من البيت الثانى ترجم كل تلك المشاعر. فالشريف رغب أن تكون معناته خاصة بهذا المكان (المطبق) وبدا متحسراً جداً. لأنه وقع فى هذا المكان المحبب (الزهراء) فأراد أن يستثنى هذا الأخير على أن لا يبعد كثيرا عما جال من عداء وذم، وما صرح به من ألفاظ عكست تجربته منذ أول كلمة.

وتنساق هذه المعاناة من السجن بألفاظ ودلالات أخرى فى قوله:

أصبحتُ فى الدهرِ كالمعقول مختفياً ... عــن العــيون ومــا تخفــى مفاهمــه
كأنمــا الــسحرُ صــدرى فــى تــضمنه ... شخصى وشخصى سرى فهو كاتمه
كأنمــا الدهــر يخــشى مــنه لى فــرجاً ... فمــن قــيودى علــى الــبلوى تمائمــه[2]

---

(١) مع شعراء الأندلس والمتنبى، ٧٨.
(٢) المصدر السابق، ٨٥



obeikandi.com

إنها نظرة تأمل لصروف الدهر يبثها الطليق من ذلك المكان، وجاءت هذه الأبيات بعد طول المدة التى مكث بها الطليق حيث اختفى عن العيون،وضاقت به القيود ،وأصبحت كأنها تمائم تحميه من الخروج.

ويعيش محمد بن مسعود البجانى تجربة ذلك المكان المرفوض لا سيما بعد أن فرق بينه وبين الأمير الطليق، فهو القائل:

ما أقبحَ الصبر عندى بعد فرقتهِ ... يا نفس ذوبى عليه هكذا ذوبى

يا غائبًا قد أطالت كفُّ غيبته ... على لظى الشوق والأحزان تقليبى

تعجب القطر من عينى حين همّت ... منها الشآبيب فى إثر الشآبيب

عندى استقرت جنود الكرب أجمعها ... فلست تسمع من بعدى بمكروبِ

سجنٌ وقَيْدٌ وَأَعْدَاءٌ منيت بهم ... لا يسأمون مع الأيامِ تثريبى

فى منزل مثل ضيقِ القبر أوسعه ... دخلته فحسبت الأرض تهوى بى

يحنُ عند مقاساة البلاء به ... قلبى إليك حنين الهيمِ والنيبِ[1]

إنه يقبح الصبر بعد فراق الأمير، ويتقلب على جمر الغضى، ويصف حاله بالمأساوى، فمن استقر عنده هم جنود الهم والحزن، فضلا عن ذلك المكان المرفوض (السجن)وقيد الأعداء وغيرها من المآسى ثم يشبه واسع سجنه بضيق القبور، ورغم مقاساة ذلك المكان، وما يعانيه حاله فإن قلبه مشدود إلى الأمير.

وبعد هذه المعاناة والآلام التى وجدها البجانى أخذ يتوسل إلى المنصور من خلال قوله:

دعوتُ لما عيل صبرى فهلْ ... يسمع دعواى المليك الحليمْ

مولاى مولاى ألا عطفةً ... تذهب عنى بالعذاب الأليمْ

إن كنت أضمرتَ الذى زخرفوا ... عنى فدعنى للقدير الرحيمْ

فعندهُ نزاعةٌ للشوى ... وعنده الفردوس ذات النعيمْ[2]

---

(١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، ١/ ١/ ٥٦٤.

(٢) نفح الطيب، ٣/ ٢٨٩.

إنها نبرة حزن تكشف عن حال الشاعر وما وصل إليه حاله من ضعف وهوان ويجد فى القرآن الكريم ماينهل، ليخاطب المنصور من خلال البيت الرابع، ثم يطلب منه أن يترك حسابه لله فيعاقبه أو يثيبه.

ويصبح السجن لدى الرمادى معاديا لكونه مانعا طيف الحبيبة حيث يقول:

هبوا إنّ سجنى مانعٌ من وصاله ... فما الخطبُ أيضاً فى امتناع خياله

نعم لم تنم عينى فيطرقَ طيفهُ ... زوالُ منامى علّةٌ لزواله

فدا الصب من لم ينسهُ فى بلائه ... وينسى اسمه من كان فى مثل حاله

ومن صار سجنى قطعةً من صدوده ... وطول اكتئابى شعبةً من ملاله

ومن لم يَشُبْ شهداً بسمٍّ لطاعمٍ ... إلى أن بدا لى هجره فى دلاله

ولم تر عينى حاسدين تبايناً ... عليه سوى قلبى وتُربِ فعاله[1]

حيث أصبح المكان السجن - مانعا للنوم- وبالتالى مانعا لطيف الحبيب أن يزوره، وقد عبر عما يجول فى خاطره من أبيات لا تخلو من مسحة فلسفية ويبدو ذلك فى ألفاظ (الزوال والعلة)

وبعد هذه المعاناة وقسوة السجن ونفاذ الصبر يبث الشاعر أنفاس الحزن والإرهاق ويستسلم للوشاة، ليبلغوا المنى فى الشماتة، فهو القائل:

تكنّفه همَّان: شجوةٌ وصبوةٌ ... فُبلِّغَ واشيه المنى وعذوله

فإن يَستبنْ فى وجهه همُّ سجنهِ ... فقد غاب فى الأحشاءِ عنكِ دخيله[2]

ويتدخل الزمان ليزيد من عدائية المكان ويتحدان معا لزيادة معاناة الشاعر يقول:

---

(١) شعر الرمادى، ١٠٨.

(٢) المصدق نفس، ١٠٣.

يعم فلا يألوا حصاراً لعلّه		سيودى فيودى بثُّه وأليله
فلو كان فى هذا الحصار سميه		لأنساه طول السبع فى اليوم طوله(١)

فطول النهار فى السجن قد فاق طول السنوات السبع التى أشار إليها القرآن الكريم فى سورة يوسف عليه السلام جاعلا من هذا الوصف تعبيرا عن ضيق حاله. ويبدو أن الرمادى قد أسقط ما بيده لديه إلا التوسل والاستعطاف، لإخراجه من هذا المكان حيث يقول:

ويا سيّدى عبد رجاكم مُعوّلُ		عليكم ولا يجرى سواكم بباله
وهل يستعينُ المرءُ فى قعر هُوَّةٍ		لإخراجهِ إلاّ بأقوى حباله
هل أبصرتموه شافعًا بسواكمُ		وأقبح بعدٍ وهو فى ضيقِ حاله(٢)

فهو يحاول خلق وجدانية بينه وبين من يطلب منه النجاة فيجعله أول من يخطر بباله وأقوى حباله التى يستعين بها للخروج من هذا المكان.

ويمر ابن شهيد فى المحنة ذاتها،ويعانى قساوة ذلك المكان، ويبعد عن الأهل والأحبة، ويبث أحزانه من خلال قوله:

فراقٌ وسجنٌ واشتياقٌ وذلّةٌ		وجبّار حُفّاظٍ علىّ عتيدُ
فمن مبلغُ الفتيان أنّى بعدهَم		مُقِيمٌ بدارِ الظالمين طريدُ
مقيمٌ بدارٍ ساكنُوها من الأذى		قيامٌ على جمرِ الحمام قعودُ
ويسمعُ للجنَّان فى جنَباتِهَا		بسيطٌ كترجيعِ الصَّدى ونشيدُ
وما اهتزَّ بابُ السِّجنِ إلاّ تفطّرت		قُلوبٌ لنا خوف الرَّدى وكبُودُ(٣)

فقد اجتمعت على شاعرنا زيادة على شدة سجانيه الغلاظ شدة فراق الأحبة ونار

---

(١) المصدر نفسه،١٠٣.
(٢) شعر الرمادى،١١٠.
(٣) ديوان ابن شهيد الأندلسى، ١٠٠.

الشوق له والسجن وذلته ويريد أن يرسل رسالة لصحبه بأنه مقيم بدار الظلم على جمر الموت وقد أحيط بهذا السجن جو الخوف من الموت ورهبته تنفطر منها القلوب والأكباد.

إن الشاعر السجين كان يعرض واقعه وآلام واقعه فيتفجر غضباً وسخطا ويتحرق أسى ومرارة، لما هو عليه من إهمال وهوان،وابن شهيد يعرض لنا هذه المعاناة من خلال قوله:

وقلتُ لصدَّاحِ الحمامِ وقد بكى ... على القصرِ إلفًا والدُّموع تجودُ
ألا أيُّها الباكى على من تحبُّه ... كِلانَا مُعَنًّى بالخلاءِ فريدُ
وهل أنت دانٍ من محبٍّ نأى به ... عن الإلف سلطانٌ عليه شديدُ
فصفق من ريش الجناحين واقعاً ... على القُربِ حتى ما عليه مزيدُ
وما زال يُبكينى وأُبكيهِ جاهداً ... وللشَّوقِ من دون الضُّلوعِ وقودُ[1]

هكذا كان موقف الشاعر الأندلسى من السجن إنه موقف عدائى رسم الحزن على وجوه أصحابه وترك أثره على نفسيته فمنهم من يبكى على الحياة ومنهم من ضاقت به السبل وراح يصرخ ويستعطف دون جدوى ومنهم من راح يصف حاله وصفا دقيقا ومعبرا عن نفسيته القلقة الحائرة فهو أشبه بكتلة من العواطف والانفعالات، من حين إلى آخر فكان متمردا فى أول أيام سجنه متذمرا فى أيام أخرى وهناك من وصف قساوة المكان وما فيه من وحشة ورهبة،ووصف السجن وأبوابه، وهناك من أثر السجن على نفسيته فسلك طريقا مصطبغاً بالصبغة الدينية والرجوع إلى الله تعالى. بل وتحول السجن إلى باعث معاناة قاسية.

---

(١) ديوان ابن شهيد، ١٠١.

## المبحث الثالث

## الغربة المكانية والحنين فى الشعر الأندلسي

كان فتح الأندلس حدثًا تاريخيا عظيما يستحق أن يرسم له التاريخ أروع الصور والبطولات وكان فتح الأندلس ((أثناء حركة الامتداد الدينى والفكرى البشرى التى بعثها الإسلام فى عالم القرن السابع الميلادى ))[1] وكان هذا الحدث فاتحة خير للعرب والمسلمين.

ورافق هذا الفتح عدد لا يستهان به من العرب تركوا بلادهم وساروا نحو الغرب من أجل دافع دينى، إلا أن مشاعر هؤلاء كان لابد لها أن تتأثر بذلك المكان البعيد عن الأصل (المشرق) فعاشوا هناك بأجسامهم، أما الروح فهى باقية فى المشرق.

ورغم كل هذا استقر العرب فى الأندلس، وحاولوا توطين النفس على اتخاذ الأندلس دارا دائمة، إلا أن هذه المشاعر كانت تنتابها غربة شديدة فى ذلك المكان مردها إلى أن العربى فى بداية الفتح ما زال ينتابه القلق والخوف على حياته فهو يعيش فى بيئة محاطة بالأعداء هذا من جهة ومن جهة أخرى طبيعة هذه الجزيرة النائية المختلفة تماما عن الجزيرة العربية، سواء أكان من حيث المناخ أم من خلال نمط الحياة فيها، فقد وجد العرب خليطا غير متجانس من البشر، وظلوا ملتفتين بأذهانهم ونفوسهم إلى المشرق يستطلعون أخبارهم، ويطبقون عاداتهم، وأصولهم العربية، وهذا ما أشار إليه الدكتور أحمد أمين بقوله: ((كانت السنون الأولى بعد الفتح سنى دهشة وتخمر، فالبيئة غريبة عن العرب، والمناظر مختلفة عن مناظر

---

(١) فجر الأندلس،د. حسين مؤنس، طبعة القاهرة، ١٩٥٩م، ٤١٧.

وطنهم، وعادات البلاد وتقاليدها مختلفة عن عادات الصحراء وتقاليدهم، فهم يحتاجون إلى زمن يتأقلمون فيه لمواجهة هذه الحالة الجديدة))[١].

إن تلك الغربة المؤلمة كانت دافعا أساسيا إلى الحنين حين تتشابك المشاعر والأحاسيس التى يصعب الفصل بينها ولا سيما الحنين إلى الديار وساكنيها ويذكر لنا الجاحظ أن العجم قالت ((من علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة وإلى مسقط رأسها تواقة)) [٢] وهذا الاشتياق نجده وبشكل واضح لدى الجيل الفاتح فقد ترك وراءه دولة عربية إسلامية كانت فى أوج عزها، لذلك نجد الشعر الأندلسى فى بداية الفتح يتسم بطابع مشرقى خالص مرده إلى الأسباب التى ذكرناها.

وهناك أمر آخر لابد من التنبيه عليه وهو خاص بالشعراء ذاتهم فهم ((حين كانوا يغادرون أوطانهم كانوا يغادرونها على كره منهم ومن ثم كانوا يحسون بالانكسار والحزن، ذلك لأنهم كانوا يغادرون أشياء كثيرة غير هذه الأشياء المادية التى كانت تحيط بهم..فقد تكون هذه الأشياء علاقة حب أو أصواتا يأنس بها فى ضوء القمر أو ارتباطا بنخلة تنبت على عينه أو ينسجم كما كان يتألق فى السماء كان يتألف فى نفسه...المهم إنه كان يغادر هذه الأشياء مهموما محزونا))[٣]. وهذه الأحاسيس والمشاعر الملتهبة من فرقة المكان أبقت ((الشاعر الأندلسى يتمزق قلقا وإحساساً بالغربة وظل شكواه عنيفاً، وبات حنينه كبيرا شامخا لا تهزه هبات الريح العاتية))[٤].

ونستحضر هذه الغربة المكانية والتى يثيرها الحنين فى وجدان الشاعر الأندلسى صوراً بارعة معبرة عن الألم والحرقة والحزن فكان ((الحنين إلى

---

(١) ظهر الإسلام، ٣/ ٩٩.

(٢) الحنين إلى الأوطان، لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، دار الرائد العربى، بيروت، ١٩٨٢م، ٨.

(٣) الغربة المكانية فى الشعر العربى، د.عبده بدوى، مجلة عالم الفكر، مج١٥، ١٥، ١٨٤،وينظر: قضايا حول الشعر، ،د. عبده بدوى، دار ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٦م، ٦٣.

(٤) مدخل إلى الأدب الأندلسى، ١٣٥.

المشرق يمثل جانبا كبيرا من أمانى شعراء الأندلس منذ أن استوطن العرب تلك البلاد))[1].

وأول من عصفت به رياح الغربة والحنين من شعراء الأندلس هو الأمير عبد الرحمن الداخل (١٧٢هـ) فبعد أن حلت النكبة بالدولة الأموية وفر إلى الأندلس ووجد فيها الملاذ الآمن وأغرق بالترف والنعيم والجاه وغير ذلك إلا أنه لم ينسه ذلك لحظة واحدة ديار الأهل والأحبة فى الشرق هذه الغربة وما صاحبها من حنين فى نفسية الداخل كان مردها إلى المكان الجديد الذى طرأ عليه من جهة وما آلت إليه الدولة الأموية فى المشرق من جهة أخرى.

ويذهب الدكتور الطاهر أحمد مكى إلى تعليل غربة الداخل بأنه ((خلف وراءه خلافة عظيمة انتزعت من بينهم وانتهى به المطاف أميرا على مقاطعة من مقاطعات الخلافة محدودة المساحة والقدرة والمجد صنعها بيده وظلت مجهولة القدر والمصير حتى آخر أيامه فهى لا تعوضه ولا تشبه أمجادهم هناك))[2].

إذ ظلت المحن والأهوال التى مرت به وتعرض لها أهله وقومه فى الشام تحز فى نفسه، وتؤلمه فحاول أن ينفس أو يعبر عن معاناته بأبيات شعرية تصور عمق الغربة التى عصفت به فجاءت الأبيات التى يتشوق فيها إلى مَعَاهِدِهِ فى الشام خير شاهد على ذلك حين قال:

أيها الراكبُ الميمم أرضى ... أقْرِ منِ بعض السلام لبعضِ
إن جسمى كما علمت بأرضٍ ... وفؤادى ومالكيه بأرضِ
قَدَّر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفونى غمضِ

---

( ١) الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه د. مصطفى الشكعة، ٢٤٨.
( ٢) دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة، حرر بعضها وترجم البعض الآخر، د. الطاهر أحمد مكى، دار المعارف ،مصر، ط١، ٢٣٧، ١٩٨٠.

قـــد قـــضى الله بالفـــراقِ عليـــنا فعـسى باجتماعـنا سـوف يقـضي[1]

هذه الأبيات التى تناقلتها المصادر الأدبية والتاريخية بشكل عام جاءت لتصور غربة الشاعر فى ذلك المكان وحنينه إلى معاهد الشام وديار الأحبة فعندما رأى راكبا هاجت عواطفه، وتحركت مشاعره نحو تلك الديار فيطلب منه إلقاء السلام على أهله ويظهر تلك المشاعر المتسمة بالتمزق والضياع بأنه يحيا بجسمه فى أرض الغربة أما قلبه فهناك فى ديار المشرق ثم يعزو هذا كله إلى قضاء الله وقدره الذى لا مرد له.

ويتسع هذا الإحساس بالغربة لدى الداخل والحنين إلى المشرق عندما يرى نخلة من تلك البلاد ولهذا يقول:

تَـبدَّت لـنا وسـطَ الرصـافةِ نخلـةٌ تَنَاءتْ بـأرضِ الغربِ عن بلدِ النخل
فقلـتُ شـبيهى فـى التغـربِ والنَّوى وطـول التَّنائـى عـن بَنـى وعـن أهـلِ
نـشأتِ بـأرضٍ أنـتِ فـيها غـريبةٌ فَمـثلَكِ فـى الإقـصاءِ والمُنـتأى مِثلـى
سقتكِ غوادى المزنِ من صوبِها الذى يسَح ويستمرى السماكين بالوبلِ[2]

فالنخلة التى انتزعت من موطنها العربى وعاشت فى ذلك المكان النائى ذى الأجواء الباردة قد أثارت إحساس الداخل بالغربة فهى غريبة كحاله، وراح يعقد مشابهة بين حاله فى ذلك المكان المغترب عن المشرق وحال تلك النخلة العربية عن بلاد النخل، ثم يدعو لها بالسقيا لما رأى تلك المشابهة إنها مناجاة نفس حزينة ألهبتها رياح الغربة حيث دارت الأبيات فى فلك الانفعالات العاطفية التى يمر بها الداخل والتى تركتها ذكريات ديار الأهل والأحبة.

ورغم الغربة التى عصفت به إلا أن الداخل كان همه هو فتح الأندلس لكونه

---

(١) جذوة المقتبس، ١/ ٣٨، وينظر: بغية الملتمس،١/ ٣٢، نفح الطيب، ٣/ ٣٩٨، المعجب، ١٥-١٦.
(٢) البيان المغرب، ٢/ ٦٠، نفح الطيب،٣/ ٥٤.

مكانا بعيدا عن نفوذ العباسيين وانشغال الأخيرين بمشاكلهم الداخلية[1]. وعلى الرغم من اهتمامه بشؤون الفتح إلا أنه بعد استقرار الدولة نجد الداخل ترميه الغربة مرة أخرى فى بحر الأحزان عند رؤيته للنخلة فيقول:

يـــا نخـــلُ أنـــتِ غـــريبةٌ مثلـــى ... فـــى الغـــرب نائـــيةٌ عـــن الأصـــل
فابكـــى وهـــل تبكـــى مكبـــسةٌ ... عجمـــاء لم تُطـــبع علـــى خَـــيلَ
لـــــو إنهاتبكـــــى إذاً لـــــبكت ... مـــاء الفُـــرات ومنـــبت الـــنخلِ
لكـــــنها ذهلـــــت وأذهلنـــــى ... بغـض بنـى العباسـى عـن أهلـى[2]

فهو يخاطب تلك النخلة وكأنها كائن حى يجد فيها مشابهة فى الحال له فهى نائية عن مكان النخل (المشرق) كما هو ناء عن تلك الديار فتشاركه تلك الغربة والبعد بل ويجعل منها إنسانا تدرك كراهية بنى العباس لبنى أمية وتشاركه هذا الذهول.

لقد أوقعته الغربة فى صراع نفسى بين الافتخار بالقوة والزهو بشجاعته وهمته، وبين الشعور بالضعف والحنين الذى يفقد النفس توازنها ويسلمها إلى البكاء ويستعين بتلك النخلة بأسلوب شعرى حزين تجد فيه صدق المشاعر والأحاسيس ويحملها جزء من هذه الغربة المؤلمة.

وظل مثل هذا الارتباط بالمكان مرافقاً للشعراء الذين رحلوا إلى الأندلس فى تلك الديار-بداية الفتح- وتتردد كثيرا أصداء الماضى فى أشعارهم تعبيرا عن الشوق والحنين ومن خلال تسجيلها للإحساس بالوحشة والحزن واللوعة ومن حيث الصور نفسها التى جسدت هذا الإحساس ونقف مع ذكريات حزينة ومؤلمة

---

(١) ينظر:عبدالرحمن الداخل فى الأندلس وسياسته الداخلية والخارجية،إبراهيم ياس خضير الدورى، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٢م، ٤٢.

(٢) الحلة السيراء، ١/ ٣٧.

وشوق عارم إلى مكان النشأة ومكان الأهل والأحبة لشاعرة الأندلس قمر[1] وهى تتشوق إلى بغداد وتبعث حسراتها فهى القائلة:

آهًــا علــى بغــداد وعــراقها | وضــيائها والــسحرُ فــى أحــداقها
ومجالهــا عــند الفــرات بأوجــه | تــبدو أهلّــتها علــى أطــوافها
متــبخترات فــى النعــيم كأنمــا | خلـق الهـوى العـذرى مـن أخلاقهـا
نفــس الفــداء لهــا فــأى محاســنٍ | فى الدهر تشرق من سنا إشراقها[2]

إنها تذكرت وتحسرت على بغداد-دار السلام-كحسرتنا عليها اليوم- ذلك المكان الذى يذكرها بطفولتها فتشكلت إليه بحنين عميق وإحساس متدفق بالحرارة مفدية لها بنفسها.

وتتصاعد الغربة والحنين إلى أماكن الأهل لدى الغزال فيكتب أبياتا يبدؤها بالشوق العارم لقرطبة ذلك المكان الذى أودعه ذكرياته العميقة وضم أهله وأحبته حيث يقول:

كتــبتُ وشــوقٌ لا يفــارقُ مهجتــى | ووجـدى بكـم مـستحكم وتذكـرى
بقــرطبةٍ قلبــى وجــسمى بــبلدةٍ | نأيـتُ بهـا عـن أهـل ودى ومعـشرى
سـقى الله مـن مـزن الـسحائب ثـرّةً | ديـاركم اللاتـى حـوت كـل جؤذرِ[3]

ويتداخل حنينه إلى المدينة مع حنينه إلى الحبيبة التى ظلت فى ذكراه وكانت سبباً من أسباب غربته فبعده عنها فيه ألم وحزن حيث يقول:

---

(١) من الجوارى الشاعرات التى جلبن من المشرق كانت جميلة الصورة ذكية أديبة راوية حافظة مع فهم بارع وفصاحة وبيان كانت تقول الشعر على سجيتها، عاشت فى القرن الثالث الهجرى مع مولاها إبراهيم بن حجاج اللخمى صاحب إشبيلية. ينظر: نفح الطيب، ٣/ ١٤٠. الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه، ١٣٠.

(٢) نفح الطيب ،٣/ ١٤١.

(٣) ديوان يحيى الغزال، ٧٥.

بحقّ الهوى أقرِ السّلامَ على الّتى أهيمُ بها عشقًا إلى يومِ محشرِ
لئن غبتُ عنها فالهوى غيرُ غائبٍ مُقيمًا بقلبِ الهائمِ المتفطّرِ
..... .....
فوا حَزَنَى أن فرَّق الدهرُ بيننا وكدَّر وصلاً منكِ غير مُكدّرِ[1]

إنه حنين لا حدود له فترى الألم النفسى يلتهب فى أعماق الشاعر بفعل الارتباط بتلك الحبيبة، وعواطف منفعلة أهبتها مشاعر حب الديار ومن سكنها وتتواصل هذه العواطف بالبكاء على تلك الديار وأهلها وإقرار السلام عليها فيقول:

بكيتُ فما أغْنى البُكا عند صُحبتى وشوقى إلى ريمٍ من الإنسِ أحورِ
سلام سلام ألف ألف مكرر ويا حاملا عنى الرسالة كرّرِ
ألا يا نسيمَ الرّيح بَلّغْ سلامَنا وصِفْ كل ما يلقى الغريبُ وخبّرِ
وقل لشعاعِ الشمس بلّغ تحيّتى سَميَّك واقرأها على آلِ جعفرِ[2]

فهو يبكى فى غربته ولكن هذا البكاء يبقى دون جدوى ويأتى بتكرار لفظتى (سلام سلام ) ليؤكد به حنينه ولا يكتفى بذلك بل يكلف الريح سلامه إلى تلك الديار ومحبوبته وساكنيها ويطلب منه أن يصف حاله فى تلك الغربة وما آل إليه ويجعل شعاع الشمس يشاركه فى إبلاغ السلام والتحية إلى الحبيبة.

وتتمحور هذه المعانى فى الشكوى ووجع الفراق وألم البعاد بقصائد أخرى لا تخرج عن سابقتها من حيث الشعور والصحة حيث يقول:

إقْرَا السَّلامَ على إلفٍ كَلِفْتُ به قد رُمتُ صبراً وطولُ الشّوق لم يرمِ

---

( ١) ديوان الغزال ،٧٥-٧٦
( ٢) المصدر السابق ،٧٦.

ظبى تباعدَ عن قُربى وعن نظَرى ... فالنفسُ والهةٌ من شِدَّةِ الألمِ
كنّا كَرُوحين فى جسمٍ غِذاؤُهما ... ماءُ المحّبةِ من هامٍ ومُنسجمِ
إلفينِ هذا بهذا مغرمٌ كَلِفٌ ... وواحدٌ فى الهوى مِنا بمُتّهمِ
لله تلكَ الليّالى والسرُّور بها ... كأنّما أبصرتها العينُ فى الحُلمِ
ففرّقَ الدهرُ شملاً كان مُلتئمًا ... منّا وجمَعَ شملاً غيرَ ملتئمِ
ما زلتُ أرعى نجومَ اللّيلِ طالعةً ... أرجو السلوَّ بها إذْ غبتُ عن نَجمى [1]

كان وراء تلك الغربة المكانية حنين إلى الأهل والأحبة، فالغزال يجد فى هذا الحنين ما يطفئ تلك النار بل ورأى فيها واجبا ووفاء للمحبوب أن يرسل إليه هذه الأبيات، فهو يقرأ السلام عليها وقد أضناه الصبر ويصف لنا نفسه الواهة الملتهبة من الفراق ويحن إلى الماضى بتذكر الأيام الغوالى التى قضاها معها فهما كروحين فى جسد واحد، غذاؤها الحب والوفاء أما الليالى، فيحن لها تلك الليالى التى قضاها مع الحبيب، ويستعتب الدهر المفرق شملهم والجامع شمله مع آخرين لم يألفهم ويساهر نجوم الليل، ناظرا إليها متسليا معهم، واضعها بمكان حبيبته التى غابت عنه.

وبعد هذا فلا يجد سبيلا إلا الشكوى إلى الله بقوله:

أشكو إلى الله ما ألقى لِفُرقتِه ... شكوى مُحبٍّ سقيمٍ حافظِ الذممِ
لو كنتُ أشكو إلى صُمّ الهضابِ إذًا ... تفطّرت لِلّذى أُبديه من ألمِ
إنْ غابَ جسمُك عن عَينى وعن نَظرى ... فما يغيبُ عن الأسرار والوَهمِ
إنّى سأبكيك ما ناحَتْ مُطوّقةٌ ... تبكى أليفًا على فرعٍ من النَّشمِ [2]

---

(١) ديوان الغزال، ١٠٤.
(٢) المصدر السابق، ١٠٥.

إنه يقدم فى شكواه من غربته تجربة رائعة محكومة برؤيا واعية فى بث روح الأسى والتوجع، ويعكس لنا المعاناة النفسية التى ألمت به، ويبدو أن العواطف والانفعالات قد سكنت أحشاءه وكانت وراء هذا الإبداع فبعد أن أضنته الغربة بث شكواه إلى الله عله يفرج ما حل به ، هذه الشكوى لو ألقيت على صم الهضاب لتفطرت من شدة ما فيها من أنين وحسرة وراح يخفف هذه الغربة بإقناع نفسه الحزينة بأنه حتى لو غاب الجسم فهو فى الخيال، وآلى على نفسه البكاء إليها وإلى ديارها كلما ناحت حمامة، وفاء لهذا الحب.

إن آثار الغربة لا تمحى من الذاكرة وتبقى تحز فى نفس الإنسان مشاعر الألم والمعاناة فهذا محمد بن عبد السلام[1] (٢٦٨م) يتذكر غربته فى المشرق بعد أن عاد إلى الأندلس حيث يقول:

كـأن لم يكـن بـين ولم تَـكُ فَـرقةٌ ... إذا كـان مِـن بَعـد الفِـراق تَلاقـى
كـأن لم تُـؤرِّق بالعِـراقين مُقلتـى ... ولم تَمـرِ كـفُّ الـشَّوق مـاءَ مآقـى
ولم أَزَر الأعرابَ فى خَبْت أرضهم ... بـذات اللَّـوى مـن رامـهِ ويُـرَاقِ
ولم أصطبح بالبيد من قهوة النَّوى ... بكـأسٍ سَـقا فـيها الفِـراق دِهَـاقِ
أخـى إنمـا الدُّنـيا محلّـة فُـرقةٍ ... ودارُ غُـرورٍ آذنـت بفِـراقِ
تزوَّدْ أخى من قَبل أن تسكن الثَّرى ... وتلـتفُّ سـاقٌ للنُّـشُور بـساقِ[2]

فهو يتذكر غربته المريرة ويقص علينا إرهاصات المكان وتحولاته فقد كانت غربة مرة عاش آلامها ، ويعود به الزمان مرة ثانية، ليخفف من آلام تلك الغربة، وأخذ

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن الحسن بن كليب الحسنى رحل إلى المشرق ولقى أحمد ابن حنبل وأقام خمسا وعشرين سنة متجولا فى طلب الحديث ثم عاد الأندلس، ومات فيها سنة ٢٨٦هـ. ينظر: تاريخ علماء الأندلس، ٢/ ٦٤٨، الجذوة، ١/ ١١٨ ،البغية ١/ ١٣٧.

(٢) جذوة المقتبس، ١/ ١١٨، بغية الملتمس، ١/ ١٣٧.

يلج بعدد من الحكم ضمنها هذه الأبيات لا سيما نظرته إلى الدنيا بأنها دار غربة ودار متاع قليل فلا تركن إليها، واجعل نفسك عابر سبيل، ولجأ الشاعر فى البيت الأخير إلى تضمين آية تصور الموقف فى يوم النشور.

لقد أصبح الشاعر الأندلسى يعيش فى مكان غريب عن طبيعة بلاده الأولى وبين قوم غرباء بعيدين كل البعد عن عاداته وتقاليده فهذا ابن عبد ربه يقول:

الجسمُ فى بلدٍ والرّوحُ فى بلدِ ... يا وحشةَ الرّوح بل يا غُربة الجسدِ[1]

إنه يعيش بذلك المكان النائى بلا روح فهى مستقرة فى موطن الأصل معقود بالمكان الذى لا تمضى ذكراه، أما الجسم فهو فى هذا المكان الغريب.

والشاعر الأندلسى تبقى ديار الأحبة بالنسبة له قطعة من حياته ينظر إليها ويحس بعمق الغربة التى تمر به فلا يجد شيئا سوى العودة إلى مناجاة هذه الذكريات فهذا ابن هانئ يقول:

عَهدى به والعيشُ مثل حِمامة ... نميرٌ بماءِ الوردِ والمسكِ مقطوبُ

وما تفتأ الحَسناءُ تُهدى خَيالها ... ومن دُونها إِسآدُ خمسٍ وتأويبُ

وما راعَنى إلاّ ابنُ ورقاءَ هاتفٌ ... بعَينهَ جمرٌ من ضُلوعى مَشبوب

وقد أنكرَ الرَّوحَ الذى يَستظِلُّه ... وسَحَّت له الأغصانُ وهى أهاضيبُ

وحثَ جناحيهِ ليخطفَ قلبهُ ... عشاءً سذانيقُ الدُّجى وهو غِريبُ

ألا أيُّها الباكى على غيرِ أيكة ... كِلانا فريدٌ بالسَّماوةِ مغلوبُ

فُؤادكَ خفّاقٌ ووكرُكَ نازحٌ ... ورَوضكَ مطلولٌ وبانكَ مهضوبُ[2]

---

(١) ديوان ابن عبد ربه، ٥٢.

(٢) ديوان ابن هانئ، ٢٢، الجمام: الماء الكثير، النمير، الزاكى من الماء، إسآد: سير الليل، التأويب: سير النهار، السذانيق: الصقر، الغربيب: الأسود

فقد ضمن ابن هانئ معانى الحنين لمنزل الحبيب وتذكر أيام الصبا وهناء العيش وطيب الماء ووفرته، ويحاول أن يخفف آلام غربته بأن حبيبته ما زالت تراه ويراها عن طريق الخيال، ثم يعقد مشابهة بين حاله وحال فرخ الحمام فهو يحترق نارا لفراق أبويه كحال ابن هانئ الذى يحترق لبعد الحبيب، ويصف حال هذا الطائر وما ألم به من فقد البصر فلم يعد يعرف مكانه وراح ينادى صقور الليل ويلقى بنفسه بالتهلكة، لينجو بنفسه من ألم الفراق ثم يناجى ابن هانئ ذلك الطير البائس ويقول له كلانا منفردان بعيدان كل البعد عن مكان الأهل والأحبة.

هذا هو حال الإنسان العربى يخشى فراق الأرض ومصائب الغربة ويحس بالشوق والحنين أينما سار واتجه، ويحن ابن هانئ أيضاً إلى موطن سكناه فهو القائل:

ولى سكن تأتى الحوادثُ دونه ... فيبعدُ عن عينى ويقربُ من فِكرى

إذا ذكرتهُ النّفسُ جاشت لذِكره ... كما عثرَ السَّاقى بكأسٍ من الخمرِ

ولم يُبقِ لى إلاّ حشاشةَ مُغرمٍ ... طَوى نفسَ الرَّمضاءِ فى خلل الجمرِ

وما زلتُ ترمينى اللّيَّالى بنَبلِها ... وأَرمى اللّيَّالى بالتّجلدُّ والصَّبرِ

وأحملُ أيامى على ظهرِ عادةٍ ... وتَحملنى منها على مركبٍ وَعْرِ [1]

إنه يحن إلى مكان سكناه، حيث الحبيبة وكلما ذكرته النفس جاشت لذكره واضطربت كما حصل للساقى بعثرته بكأس الخمر، فلم تبق الغربة منه إلا بقية من روحه المعذبة بجمر الفراق، ويبث شكواه من الدهر وما جر عليه فهو يعامل أحبته باللطف ويعاملونه بالبعد والفراق، فليس لديه سوى التعبير عما لقى من الجفاء والبعد.

---

(١) ديوان ابن هانئ، ٢١٤-٢١٥، الرمضاء: شدة الحر

إن النفس البشرية حين تداهمها الغربة وتسكن فى أحشائها ويسيطر عليها اليأس وينتابها القلق فما من سبيل إلا التذكر والحنين إلى الماضى فهذا محمد بن أبى عيسى[1] (٣٣٩هـ) يقول:

ويــل أمِّ ذِكــرىَ مــن ورق مُغَّــردة ... علـى قـضيبٍ بـذاتِ الجـزع مَـيَّاسِ
رَدَدن شـجوًا شـجا قلـبُ الخلـى فقـل ... فـى شَـجو ذى غـربة نـاءٍ عـن النَّاس
ذكــرَّنه الــزَّمن الماضِــى بقــرطبة ... بــين الأحِــبَّة فــى لهــوٍ وإِنــاس
هجـنَ الـصَّبابة لـولا هِمّـةُ شَـرُفت ... فـصيَّرت قلـبَه كالجَـندل القاسِـي
كـم بـين آل أبـى عيـسى وراكِـبهم ... من صَحن سهبٍ وطود شامخٍ راسِي
ومــن بحــارٍ إذا هاجــت بــصاحبها ... أهدتْ له الخوفَ محمولاً على الرّاس[2]

فقد أورد الشاعر هذه الأبيات التى تنم عن فجاعة الخطب وشدة الغربة وضمنها عددا من الألفاظ الحزينة هى (ويل، شجو، ناء عن الناس، هجن) هذه الألفاظ تعكس شدة غربة الشاعر تجعله يتذكر الزمن الماضى بقرطبة حيث اللهو والأنس وراح يقرن بين حاله اليوم وحال غربته التى صيرت قلبه كالحجارة القاسية ويتساءل كم البعد بينه وبين قومه وما بينهم من جبال وسهول وبحار هائجة؟.

أما ابن شخيص فهو الآخر يحن إلى موقع أنس يجمع بين الظرفاء وأهل الشراب يعرف بالركين فيقول على لسان صاحب له غاب عن الركين:

إِقـرِ الـسلامَ علـى الـركينِ وقـل لـهُ ... مــذ غــبتَ لم أرتــحْ لظـل نــسيمِ
ســقيًا لظلّــكَ بالعــشى بالــضّحى ... لــبردِ مائــكَ فــى احـتدامِ سمــومِ

---

(١) محمد بن أبى عيسى من بنى يحيى الليثى كان فقيها جليلا عالما موصوفا من أهل الأدب والشعر، أورد له أحمد بن فرج الجيانى بعض أشعاره توفى سنة ٣٣٩ هـ. ينظر : جذوة المقتبس، ١/ ١٢٦، تاريخ قضاة الأندلس للنباهى، المكتب التجارى للطبع والنشر، بيروت، ٦١-٦٢.
(٢) جذوة المقتبس، ١/ ١٢٦.

لـو كـنتُ أملـكُ مـنعَ مائـكَ لم يقُـم  فـى ظـلِّ سـاحِكَ منـتمٍ للئـيمِ[1]

وتصل هذه المشاعر إلى عالم الأندلس وفقيهها ابن الفرضى[2] (ت:٤٠١هـ) فيقول فى مقطوعة له معرجا على معانى الفراق وطول الزمان وتباعد المكان والأهل والأخوان:

مُـضت لى شُـهورٌ مـذ غبـتم ثلاثـةٌ  ومـا خِلتُنـى أبقـى إذا غبـتُم شـهرَا
ومـا لِـى حـياةٌ بعـدكم أسـتلذّها  ولـو كـان هـذا لم أكـنُ فى الهَوى حُرًّا
ولم يُـسلنى طـولُ التَنائـى هـواكمُ  بـل زادنـى شـوقًا وجـدَّد لى ذِكـرَا
سأسـتعتب الدهـر المَفـرق بينـنا  وهـل نافعى إنْ صِرْت أستعتب الدَّهرَا
وتـالله مـا فارقـتكم عـن قِلـى لَكـم  ولكـنّها الأقـدارُ تجـرى كمـا تُجـرى
رعـتكم مـن الـرَّحمن بعـين بـصيرة  ولا كشفتْ أيدى الردى عنكم سترا[3]

فابن الفرضى يعرف كيف يلج إلى نفس الإنسان ويحاورها ويطرح عليها مشاكلها والمتلقى لنصه الشعرى يجد ذلك، فهو من أول الأبيات يركز على ارتباط الزمن وجدليته بالمكان فالفراق يعنى بدء مغادرة المكان ومن ثم الحنين إليه والزمان يعنى زيادة فى ذلك الحنين إيغالا فى مشاعر الغربة وتفعيلا لها فأبيات ابن الفرضى دارت أولا وآخرا حول الزمن بدليل ذلك (مضت لى شهور) و(ما لى حياة بعدكم)و (الأقدار تجرى) ومع هذا الكم الهائل من ألفاظ الزمان يمكن لنا الكشف عن معانى المكان المعنوية التى رافقت الأبيات وترابطت مع الزمان كما يأتى:

---

(١) شعر ابن شخيص الأندلس، ٨٥.

(٢) عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدى يكنى بأبى الوليد ويعرف بابن الفرضى كان من أهل قرطبة ورحل إلى المشرق سنة ٣٨٢هـ وهو صاحب كتاب تاريخ علماء الأندلس وكان له سعة فى الرواية وحفظ فى الحديث ومعرفة بالرجال وكان بارعا فى الأدب والفصاحة قتل سنة ٤٠١هـ. ينظر: الذخيرة، ١/ ٢/ ٦١٤-٦١٦، الصلة ١/ ٣٩١، بغية الملتمس، ٢/ ٤٣٣، المغرب، ١/ ١٠٣.

(٣) تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضى، ١/ ١٢، وينظر: البغية، ٢/ ٤٣٥، والصلة، ١/ ٣٩٥.

(مضت لى شهور) ⟵ المجافاة الحقيقية عن المكان لمدة طويلة.

( وما لى حياة) ⟵ السأم والضجر من المكان لمدة طويلة.

(سأستعتب الدهر) ⟵ الغربة والضجر من المكان الجديد.

(والأقدار تجرى) ⟵ غربة مكانية جبرية التى أقام فيها الشاعر رغما عنه.

ومن هذه المشكلة يعلمنا ابن الفرضى صعوبة الحياة فى بلد غير بلده ومعاناة من تجبر الأقدار ويلزمه الزمان على المعايشة فى الموطن الجديد.

إن فراق الأهل والأحبة لأمرٌ فى غاية الصعوبة وكما أشرنا سالفا تبقى الذكريات هى المعين الأول على هذه الغربة فهذا عبد الوهاب المالكى[1] (٤٢٢هـ) يقول:

فـدىَ لـكِ يـا بغـداد أهـلاً ومنـزلاً ولم أرَ فـيها مـثلَ دجلـةَ واديـا

ولا مـثلَ أهلـيها أرقَّ شمـائلاً وأعـذبَ ألفاظًـا وأحلـى معانـيا[2]

فهو يفدى بغداد بالأهل والمنازل ويحن إلى دجلة وإلى طيب أهلها وحلاوة ألفاظهم ورقة طباعهم وأخلاقهم.

ويتطور أثر الغربة على شاعرنا المالكى فيأخذ ببكاء نفسه حيث يقول:

أنـا فـى الغـربة أبكـى مـا بكـت عـينُ غـريبِ

لم أكـنْ يـومَ خروجـى مـن بـلادى بالمـصيبِ

عجـباً لى ولتركـى وطـناً فـيه حبيبـى[3]

إنها معاناة نفس غريبة حزينة فهو يبكى فى غربته بكاء شديدا لم تبكه عين

---

(١) عبد الوهاب بن على بن نصر المالكى البغدادى ولد فى بغداد سنة ٣٦٢هـ وتوفى سنة ٤٢٢هـ. ينظر: تاريخ بغداد لابن الخطيب البغدادى، دار الكتاب العربى، بيروت، ١١/ ٣١-٣١.

(٢) الذخيرة، ٤/ ٢/ ٥٢٧.

(٣) المصدر نفسه، ٤/ ٢/ ٥٢٥.

غريب آخر ويخطئ نفسه باتخاذها قرار مغادرة بغداد متعجبًا كيف يترك وطنا فيه الحبيب.

إن الشاعر الأندلسى قد وعى حاضره تمامًا وهذا الوعى ((لا يمكن إلا أن يكون وعيا إنسانيا بكل ما فى كلمة الإنسانية من معنى الامتداد فى الزمان والمكان)) [1] حيث أصبحت الغربة تمزق نفس الشاعر وأصبحت ذاكرته وحنينه مأوى لغربته وهذا ما نلمسه فى قول أبى عمر الباجى [2] (ت:٤٣٥):

سلامٌ على صفات الكَرَمْ ... على الغُرَرِ الفارجات الغُمَمْ

فلا أَنْسَ ذاك الحَيا ... وتلك المعانى وتيك الشِّيَمْ

ودُنْيَا بكم طلقَةَ المجتَلى ... ودهرًا بكم واضحَ المُبتسمْ

وساعاتِ أنسٍ تجول النفوسُ ... لديها مَجالَ حمامِ الحَرَمْ

أحنُّ إِليكم ومن شاقه ... تذكُّر عهدكُم لم يُلمْ [3]

فهو غريب فى المشرق برح به الشوق فحن إلى الأندلس وتذكر أيامها وساعات أنسها وبهجتها وبقيت هذه الذكريات تخفف بعض الشىء عن غربته.

وعلى الرغم من قساوة الغربة فإننا نجد الشاعر الأندلسى قد عاش فى حالة اغتراب أيضاً فهذا الغزال يشعر بالانفصال عن الآخرين والاغتراب عن جيل لا يعرفه، نشأ فيه من غير أواصر تربطهم به حيث يقول:

أصبحتُ والله مَحسُودًا على أمدٍ ... من الحيَاةِ قصيرٍ غير مُمتدِّ

---

(١) تجارب فى الأدب والنقد، د.شكرى عياد، دار الكتاب العربى، القاهرة، ١٩٦٧م، ١٩.

(٢) الفقيه أبو عمر يوسف بن جعفر ا لباجى، جليل القدر، رحل إلى المشرق وحج وولى قضاء حلب ثم عاد إلى الأندلس، توفى ٤٣٥ هـ. ينظر: خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهانى (٥٩٧ هـ)، تح: عمر دسوقى وعلى عبد العظيم، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٤م، ٤/ ٢٢٣٧، المغرب، ١/ ٤٠٥.

(٣) الخريدة، ٢/ ٣٣٨، وينظر : المغرب، ١/ ٤٠٥

حتّى بقيتُ بحمدِ الله فى خلفِ ... كأنّنى بينهمْ من خشيةٍ وَحدْى
وما أُفارقُ يومًا من أفارِقهُ ... إلا حسبتُ فراقى آخِرَ العهدِ
أنظرْ إلى إذا أُدرجت فى كَفنى ... وأنظُرْ إلى إذا أُدرجت فى اللّحدِ
وأقعدْ قليلاً وعاينْ من يُقيم مَعى ... ممن يُشّيعُ نعشى مِن ذوى وُدّى
هيهاتَ كُلّهُم فى شأنِهِ لعِبٌ ... يرمى التُّرابَ ويحثوه على خَدّى [1]

هذه النظرة المتشائمة عن انفصال الشاعر من البيئة التى يعيش بها وعن أناسها ربما كان مرده إلى اختلاف فى السلوك أو الآراء أو الأذواق فينظر إليهم نظرة توجس وخيفة من الحسد ويرثى نفسه ويظن بهم ظن السوء عندما يحملون نعشه فلا أحد يهتم له فكلهم لاهون عنه.

ونجد هذه النظرة تجاه الناس لدى مؤمن بن سعيد[2] (ت: ٢٦٧هـ) حيث يقول:

إنما أزرى بقدرى أننى ... لست من بابة أهل البلدِ
ليس منهم غير ذى مقلية ... لذوى الألباب أو ذى حسدِ
يتحامون لقائى مثلما ... يتحامون لقاء الأسدِ
طلعتى أثقل فى أعينهم ... وعلى أنفسهم من أحدِ
لو رأونى قعر بحرٍ لم يكن ... أحد يأخذ منهم بيدى[3]

---

(١) ديوان الغزال، ٦٤.

(٢) أبو مروان مؤمن بن سعيد بن إبراهيم بن قيس، رحل إلى المشرق فلقى أبا تمام وروى عنه شعره، واتخذ من قرطبة موطنا له، وكان شاعرا مشهورا وكان فحل شعراء قرطبة، شمت بالوزير هاشم عندما سجن، وبعد خروجه نصب له حبال السعاية عند الأمير محمد حتى ألقى فى الحبس وأدى إلى هلاكه فى سنة ٢٦٧ هـ. ينظر: جذوة المقتبس، ٢/ ٥٦٣، المغرب، ١٣٢-١٣٣.

(٣) يتيمة الدهر، ٢/ ٢٤.

إنه يقاسى الاغتراب والانفصال الحاد عن جميع الناس فيرسم لنا رؤية الناس تجاهه فيرى أنه ليس منهم وبعيدا عنهم ويرى أنهم يتحاشون لقاءه ولا يطيقونه كما يخشون لقاء الأسد لذا فهو يحس باغتراب عندما يظهر لهم ورؤيتهم له أثقل من الجبال، وهذا نابع من سوء الظن بهم، حتى يرى بأنهم لو رأوه فى قاع بحر لما أنقذوه.

ويصرح الرمادى عن اغترابه بشكل مباشر عندما يقول:

اغْتَرَبْنا أَنْتِ مِن بَجَّانةٍ ... وأَنا مغترب من قُرطُبَهْ
واجْتَمَعنا عِنْدَ إخوان صفًا ... بالنَّدى أموالُهم مُنتهَبَهْ
.................................... ....................................
لاجتماعٍ فى اغتراب بيننا ... قَبَّلَ المُغتربُ المُغتَربهْ[1]

فحاله وحال تلك الوردة واحد كون الأول مغتربا عن قرطبة ونزوله فى وادى (أش) أما اغتراب هذه الوردة كونها ظهرت فى غير وقت الورود.

أما ابن دراج فقد ضاقت به بلاد الأندلس وأصبح يذم زمانهم ومكانهم على حد سواء، وما رأى فيها من ضيق العيش وفساد الذوق العام وظلم للرعية واستغلالهم أبشع الاستغلال، حتى حدثت الفجوة بينهم وبين الناس فضاقت به الأرض بما رحبت على غيره وأخذ يصوب نظره تجاه المشرق ولهذا قال

فإن غَرَّبتْ أرض المغاربِ مَوْئِلى ... وأنكَرنى فيها خليطٌ وخلاَّنُ
فكَمْ رَحَّبَتْ أرضُ العراقِ بِمَقدمِى ... وأجزلتِ البُشرى علىَّ خُراسانُ
وإِنَّ بلادًا أخرَجَتنى لعطَّلُ ... وإنّ زمانًا خان عَهدِى لخوَّانُ

---

(١) شعر الرمادي: ٥٣.

سـلامٌ علـى الأخـوانِ تَـسلِيمَ آيسٍ        وسـقيًا لدهـرٍ كـان لى فـيهِ إخـوانُ
ولا عــرَّفتْ بــى حلَّــةً دارُ خُلَّــةٍ        عَفَـا رسمهـا منها جفـاءٌ ونِسيانُ (١)

فهو يقول عندما ضاقت بى السبل وأنكرنى الأصدقاء آليت الذهاب إلى أرض العراق وخراسان فهى تفرح بقدومى فلا مكان لى فى الأندلس بعد أن خاننى الزمان، وأدرك ابن دراج عظمة الفجوة بينه وبين أهل زمانه فعانى اغترابه القاسى، وجعل منه إنسانا متشائما من هذا المكان.

وعانى ابن شهيد ما عاناه ابن دراج فرأى أن أهل زمانه أصبحوا حسادا له، يكيدون له ويحاولون الإيقاع به، فعاش فى جحيم مظلم من الألم والتشاؤم، ومن الإحساس بالتعاسة والشقاء، ولا نستغرب هذا الشيء لدى ابن شهيد فقد كان إنسانا رقيق المشاعر، مفرط الحساسية، فأحس بالوحشة الخاصة بين أولئك الناس حتى راح يقول:

أرى أعيُــنًا تــرنُوا إلى كأنَّمــا        تُــساوِرُ مــنها جانبــى أراقِــمُ
أَدورُ فـلا أَعتامُ غير مُحاربٍ وأَسعى        فــلا أَلقَــى امــرءًا لى يُــسالمُ
ويَجْلِـبُ لى فَهْمِـى ضُرُوبًا مـن الأَذىَ        وأَشقى امرئٍ فى قَريةِ الجهـلِ عالِمُ
وأَوجـعُ مظلُـومٍ لقَلـبٍ وذى حجـى        فَتــى عربــى تــزدريهِ أَعــاجِمُ
..........................................        ..........................................
سَــلامٌ علــيكُم لا تحـيّة شَــاكِرٍ        ولكِـن شـجىً تَنْـسدُّ مـنه الحلاقِـمُ (٢)

إن اغتراب الشاعر الأندلسى كان مرده إلى ( الثورات والفتن الداخلية وما تركته من مجاعات وأمراض تنهش فى الفرد الأندلسى، كل ذلك أدى إلى وجود

---

( ١ ) ديوان ابن دراج، ٨٩.

( ٢ ) ديوان ابن شهيد، ١٥٣-١٥٤.



openkandil.com

حالة من عدم الاستقرار والطمأنينة، تركت أثرا سلبيا فى نفسه، فضلا عن ذلك الزمان الذى لا يعطى للنابغة، ولا يقدر للكفء درجة الرضا لديه، يدفع الوضيع والحقير إلى أعلى الدرجات والرتب، ويترك العالم بين الجهلة، فهذا الزمن الذى يشعر فيه الأديب بالظلم ويحس بالضياع، ويندب حظه العاثر الذى جاء به إلى جيل غير جيله، وزمن غير زمنه)) [1]. فهذا ابن شهيد يعانى من هذه الأحداث جميعا وتعصف به ريح الاغتراب حيث يقول:

هَـوَتْ أنجـمُ العلـياءِ إلاّ أَقلّهَـا ... وغِـبنَ بمـا يَحظَـى بـه كُـلُّ عاقِـلِ

وأَصبحتُ فى خلفٍ إذا ما لمحتُهم ... تَبيَّـنتَ أنَّ الجَهـلَ إحـدَى الفَـضَائِلِ

ومـا طـابَ فـى هَـذِى الـبريَّةِ آخـرٌ ... إذا هُـو لم يـنُجدْ بطـيبِ الأوائِـل

..... .....

وكـيف ارتِـضَائى دارةَ الجهـلِ منـزِلاً ... إذا كانـتْ الجـوزاء بعـض مـنَازِلى

وصبرِى على محضِ الأَذى من أسافِلٍ ... ومجدى حُسامى والسَّيادةُ ذابِلى [2]

إذن كان للويلات والمآسى التى حلت بالأندلس فى تلك الفترة أثرها العميق فى حياة ابن شهيد فطبعت على نفسه طابع الحزن والكآبة، وضخمت الإحساس بالاغتراب فبعد أن هوى فلك بنى أمية رأى ابن شهيد أن العالم والعاقل أصبح مغبونا لا حيلة له، فلا طيب للعيش فى هذا المكان بعد أن حلت الفتنة، ولم يرتض الإقامة والعيش فى قرطبة بعدما أصابها الجهل والسفه، وأصبح مغتربا عنها بعيدا كل البعد.

---

(١) الغربة والحنين فى الشعر العربى الأندلسى. أحمد حاجم الربيعى، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٣م، ١٣٩.

(٢) ديوان ابن شهيد، ١٤٤.

إن تجربة الانفصال والاغتراب عن الآخرين كانت قاسية جدا لشعراء الأندلس وأصبح (( المجتمع كتلة كثيفة معتمة تحول بين الشاعر والضوء فازداد شعوره بأنه منبوذ، محاصر، مخنوق))[1].هكذا وجدنا الشاعر الأندلسى عانى الغربة وما فيها من مآسى وبعد وحن إلى الديار والأهل، وتجسدت فى هذه الأشعار صدق العواطف والأحاسيس المعبرة عن خلجات النفس الحزينة، وعانى الشاعر الأندلسى الاغتراب، وأحس بوجود فجوة عميقة بينه وبين مجتمعه، فكانت المعاناة وكانت ردود الفعل قاسية تجسدت بالتشاؤم والحزن.

(١) مقدمة للشعر العربى، أدونيس، على أحمد سعيد، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٧١م، ٣٨.



obeikandl.com